



من فكر السجون وأدبه

الإصدار العاشر

أوجاع البوسمة

قصص حقيقية من واقع الأسرى الفلسطينيين



جمعة عبدالله التايه

سجن النقب

أوجاع البوسطة

قصص حقيقية من واقع
الأسرى الفلسطينيين



الكتاب: سلسلة فكر وأدب السجون (10)

أوجاع البوسطة

قصص حقيقية من واقع الأسرى الفلسطينيين

المؤلف: الأسير المجاهد/ جمعة خليل التايه

الناشر: مؤسسة مهجة القدس

غزة - فلسطين

الطبعة: الأولى

سنة النشر: ذو القعدة 1441 هـ

يونيو - حزيران 2020 م

رقم الإيداع: 1374 / 2020

الآراء الواردة في الكتاب لا تُعبر بالضرورة
عن وجهة نظر مؤسسة مهجة القدس

حقوق الطبع والنشر محفوظة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا
مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾

صدق الله العظيم

[آل عمران: 241]



إهداء

• إلى إخواني الأسرى الأبطال في كافة قلاع الأسر.

• إلى كل مجاهد في سبيل الله.

• إلى من هم أكرم منا جميعاً، الشهداء الأبرار.

• إلى كل هؤلاء نقدم هذا الجهد المتواضع.





بين يدي الكتاب

إن الإنسان الذي يجوب العالم متنقلاً عبر البحار أو المحيطات أو عبر اليابسة في السهول والجبال والهضاب والبقاع والوديان، أو عبر الفضاء محلّقاً يرقب العالم والأرض وما تمور به من علو، فهذا الإنسان من المؤكد أنّه سيغدو مثقفاً بارعاً قد امتلأ بالمعارف، هذا ناهيك عن الرومانسية الممتعة بالمعرفة التي يتحصل عليها والمتعة العقلية أو النفسية في هذا الترحال، وهذا التنقل، فإنه لا شك يحدد فيك الحياة والأمل والحب والسعادة، مما يجعلك تطلب المزيد وتستعد من جديد، لترحالٍ آخر وتنقلٍ آخر.

7

وترحالنا نحن يختلف تماماً، وتنقلنا من مكانٍ إلى آخر مختلف، مليء بالأوجاع والآهات، ترحالنا نحن الأسرى اقتلاع من الجذور وكأنه النكبة مرة أخرى، تحمل بمجموع الأسرى الفلسطينيين، فلا يشبه في شيء الرحلات في العالم، وليس له علاقة فيما يسمى بالبدو الرحل.

إنه ترحال الوجع، يأتيك فجأةً وبالقوة والإكراه وغضباً، إنه انتقال من مكان لا تريده ولا تحب أن تنتقل منه ولم تختره بالأصل؛ إلى مكان يشبه بالكامل ذلك المكان الذي خرجت منه أو أُخرجت منه ودُفعت إلى غيره.

إنه انتقال وترحال البوسطة، إنه وجعها وهمها وألمها، إنه انتقال السجين الأسير الفلسطيني من سجنٍ إلى المحكمة، أو سجنٍ آخر، أو إلى



مراكز التحقيق للبدء مجدداً بالتعذيب من جديد، بعدما استقر وتعود الجسد والروح على الروتين القاتل، أو الانتقال إلى المشفى للعلاج.

إنه وجع الليل والنهار والانتظار، وجع النفس التي ترى الجنود يتفننون في إذلال الأسرى من شيوخ وأطفال وأسيرات وشباب.

إن أشد الحالات إيلاًماً ووجعاً للإنسان هو الولادة وما يرافقها من طلق ومخاض وخوف على الوالدة والمولود، ويأتي في المرتبة الثانية ألم ووجع الكلى، وفي المرتبة الثالثة وجع الأسنان، أو ربما هناك نظريات وآراء أخرى ترتب هذه الأوجاع بطريقة مختلفة، وتعتبر غيرها أشد منها ألماً.

ولا أدري هل أبالغ إذا قلت لكم إن أوجاع البوسطة أشد ألماً من أقوى وأخطر الأمراض، فهناك ألم في الجسد والجسم، أما هنا فوجع البوسطة يتعدى الجسد المنهك المكبل بكل أصناف السلاسل الحديدية. إنه يصيب النفس التي ثارت دفاعاً عن كرامتها، إنه يصيب الروح التي ما زالت تعلو وتصعد وترتفع، إنه يصيب إنسانية الإنسان، وهذه أشد الآلام، إنه وجع الكرامة، إنه الإذلال والمهانة، ومحاولة حصر الإنسان في رقم أو التعامل معه أنه شيء بلا معنى، جهاد بلا حراك، فاقد للإحساس منذ أن حطت أقدام المحتل في أرض فلسطين، وبدأت عملية التطهير العرقي أو الترحيل القسري لأهلنا، ربما خفت الأوجاع بعد النكبة والنكسة، ولكنها تركزت في الأسرى والانتهاكات المختلفة بحقهم ومنها البوسطة.

فمنذ سنة 1967م ومئات الآلاف من الأسرى يُسامون سوء العذاب على يد سجانينهم الذين قد أتعنوا كل وسائل التعذيب واحترفوا السادية



احترافاً، وغسلت أدمغتهم بالهوس الأمني والاحتياط حد الرعب القاتل، فتراهم في الحافلات والبوسطات كالكلاب المسعورة التي ترافقهم، فقد تدربوا في نفس المكان والزمان وأصل في عقولهم وقلوبهم الإجرام والتلذذ بعذاب الآخرين.

لدي في هذه السطور القادمة ما أقوله، ولدى كل أسير كذلك، فالكل له تجربته وتنقلاته وترحاله، فكل ذلك شهادات وتقارير وقصص نرويها للأجيال والعالم، ولكل المنظمات والمؤسسات الدولية التي عنت واهتمت بحقوق الإنسان وحياته وكرامته.

9 | أيضًا، هذا الوجدع أو هذه الأوجاع المستمرة حتى لو قصصناها على كل الأذان الصاغية والواعية لا يمكن لهم أن يعيشوها إلا إذا عاشوها واقعاً_عاشوها بأجسادهم ومشاعرهم أو تذوقوها إن جاز التعبير_ فالألم والوجدع لا يشعر به إلا من توجع وتألم، ولكننا نقص ونحكي علّ البعض أو الكل يشاركنا همنا ويشعر معنا ويحزن من أجلنا ويتحرق حباً وشوقاً لنا، فتصبح دافعاً لدعمنا وإسنادنا والعمل على حريتنا.

الأسير / جمعة التايه

سجن النقب





البوسطة

لا يتخيل أحد أنني أتحدث عن الولاية الأمريكية بوسطن، أو جريدة الجيروزاليم بوست، إنني أتحدث عن البوسطة، ذلك المصطلح الذي أطلقه الأسرى الفلسطينيون على الحافلة أو الباص أو السيارة التي تنقل الأسير أو مجموعة من الأسرى من السجن لمكان ما، ولكنها ليست كأية حافلة أو سيارة، فهي خالية من كل الألوان والأصباغ إلا لون الحديد.

البوسطة التي تنقل الأسرى الفلسطينيين: عبارة عن كتلة حديدية

مخوفة، بيت من الحديد والقضبان على شكل حافلة لها عجلات، في داخل الحافلة الحديدية كراسي حديدية أيضًا زوجية تتسع إلى 26 أسيرًا أو أكثر، ثم في الجزء الثاني من البوسطة زنازين انفرادية، وأجزاء من مقاعد تتسع لعشرة أسرى، ويغلق جانب المقاعد في الجزء الأول من البوسطة، والجزء الثاني وعلى قدر شبك صغير مثقوب بثقوب صغيرة لا تتعدى السنتيمتر الواحد (1 سم)، فإذا نظرت للخارج على أمل أن ترى منظرًا طبيعيًا جميلًا، أو ترى الناس أو ترى الحياة فلا تنجح لضيق الثقوب وسرعة البوسطة.

حيث وفوق كل هذا الحديد المكّس من حولك ومن فوقك ومن تحتك وعن يمينك وعن شمالك ومن خلفك ومن أمامك، رغم ذلك فأنت أيضًا مكبل اليدين والرجلين بالحديد، فلا تستطيع أن تجلس وأنت مرتاح ولا تستطيع أن تتحرك بحرية.



أحياناً ينجح بعض الأشبال أو الشباب أصحاب اللياقة البدنية أو خفيفي الحركة بالجلوس على عارضة الكرسي فيرى الحياة وما تجود به عليه من هوائها وخضارها وألوانها الربيعية الزاهية، أو يرى ما يذكره بالحياة وأن هناك أناساً آخرين موجودين في هذه الدنيا، تخرج من السجن ومنذ صعودك إلى البوسطة (الحافلة) وأنت مقيد الأيدي والأرجل، حتى في المحكمة تبقى الأرجل مطوقة بالكلبشات الحادة، فإذا مددت رجلك أو تحركت خطأ أو حركة تجاوزت فيها مسافة الكلبشات، جرحتك وضاعت عليك وأسالت دمك ولا تذهب آثارها ووجعها إلا بعد أيام من العودة من مشوار البوسطة، من الليل إلى الليل وأنت مطوق بالحديد، عشرون ساعة وأحياناً أكثر، بالجوع والعطش والضيق والحرمان والإذلال، وكأن القلوب التي في صدور هؤلاء الجند أصبحت كالحديد أو أشد قسوة.

12

كلما أصعد إلى البوسطة متنقلاً من سجن إلى آخر، أتذكر رواية غسان كنفاني (رجال تحت الشمس) وقد انصهروا من حرارة الشمس وبدأوا بالدق على جدران الخزان، وكان غسان كنفاني في روايته هذه يقصد بأن هؤلاء الرجال بدقهم على جدران الخزان ينذرون العرب والمسلمين والضمائر الحرّة، أن أنقذونا قبل فوات الأوان، قبل أن نذوب وتنصهر عظامنا تحت أشعة الشمس الحارقة، أو تحت سياط الجلادين، فما زلنا نحن سكان البوسطة، ركاب الحافلة الحديدية ندق جدران الزنازين وجدران البوسطة قبل فوات الأوان.

كل هذا الحديد وأرتال الأصفاد والكلبشات وما يحيط بك لا يغني عن المرافقين من الجند المسلحين بكل أنواع الأسلحة المتطورة، والمدججين



بالدروع والخوذ والمناظير والعصي البلاستية الصلبة التي أعدت خصيصًا لقمع الأسرى، والانهيال عليهم بالضرب المتوحش إذا ما دعت الحاجة، والأسباب أحيانًا، بل غالبًا تافهة وغير منطقية.

كذلك ترافقك مع الجنود تلك الكلاب المدربة المكمنة، هي الأخرى بقفص مقوى من الحديد مربوط بسلسلة حديدية أيضًا، وتنبح لمجرد رؤية الأسير، والكلاب تفهم عليهم، بينهم لغة متقنة بالإشارة، أو رطن بعض الكلمات، فتجيب الكلاب لبعضها، لقد تفاهموا مع الكلاب، ولم يستطيعوا التفاهم مع البشر، مع الأسرى لأنهم في الأصل لا يريدون، ولا يتعاملون مع الأسرى إلا بلغة الحديد، لغة البطش والقمع والإرهاب.

ويرافق البوسطة التي تقل الأسرى حافلات أخرى وسيارات بوليسية من أمامها ومن خلفها حراسة عليها، ومراقبة لها، مزودة كذلك بكل أنواع الأسلحة والجنود المدججين بالسلاح.

إن البوسطة وما فيها وما حولها هي قمة الإنجازات الأمنية التي تفتقت عنها العقلية الصهيونية في الاحتياط والاحتراس والهوس الأمني الجنوني، لقد مرت البوسطة بمراحل عديدة حتى وصلت إلى هذا الشكل من التطور، أطباق من الحديد الصلب بعضها فوق بعض، وربما إدارأت أن هناك حاجة للتطوير ومجارة العصر تبعد ذهنيته أكثر من ذلك وأدق احتياطًا واستجابة للظروف.

لقد كان يأتي مدرء السجن وضباط مصلحة السجن في جلسات الحوار والنقاش، وعندما كنا نطالب بحقوقنا ونمارس حقنا بالإضراب عن الطعام، والدفاع عن حقوقنا وحياتنا الكريمة، يبدؤون بالحديث أن سجون



«إسرائيل» هي الأفضل بين العالم، ويقارنون بين سجون «إسرائيل» وسجون أمريكا أو فرنسا أو ألمانيا أو السجون في الدول العربية على اعتبار أن سجون «إسرائيل» تعطي حقوقاً كاملة للأسير والسجين حتى إن أحدهم قال لنا في إحدى الجلسات أنه ذهب مع وفد من الضباط إلى بعض السجون في بلاد أوروبا، وقد أخذوا الكثير من الأساليب التحصينية عنهم، ونقلوا تلك الاحتياطات لسجون «إسرائيل»، وأصبحت السجون «الإسرائيلية» أو البوسطات عبارة عن خلاصة تجربة كبيرة وطويلة مصنوعة في الغرب، مع إضافة الصبغة «الإسرائيلية» عليها كي تصبح قاسية إلى أبعد الحدود، مع الفارق بين الأسرى الفلسطينيين وغيرهم من أسرى العالم، والسجناء في أمريكا وفرنسا هم سجناء جنائيون، سجنوا على خلفية السطو أو السرقة أو تعاطي المخدرات أو الإتجار بها، أما الأسرى الفلسطينيون فإن قضيتهم وإن تعددت أشكالها وصورها فهي وطنية بامتياز، دفاعاً عن الإنسان والأرض، فشتان بين من يبحث عن أموال من خلال السرقة والسطو والاستغلال، وبين من يبحث عن وطن قد احتل بكل أموال العالم الداعمة والمساندة للاحتلال الصهيوني.



دولة الحديد والرجل الحديدي

منذ أن أقيم الكيان الصهيوني على أرض فلسطين وهي متحصنة بالحديد، فصارعت بعد سنوات من قيامها إلى إقامة مشروعها النووي (المفاعل النووي) في ديمونا والتي ظلت تنكر وجوده عشرات السنين إلى أن انكشف أمرها على يد فعنونا حيث خطف من بلد أوروبي وسجن 18 عامًا في زنزانة انفرادية، واتهم أنه كشف أسرار تتعلق بالمفاعل النووي، وخرج سنة 2005م وتحول إلى النصرانية، وأصبح يتكلم الانجليزية وتخلي عن العبرية رفضًا منه لكل ما يربطه بالكيان الصهيوني دولةً ولغةً وأفكارًا وشعبًا وديانةً.

في الأربعينات اقترح جابوتنسكي وهو أحد القادة الصهاينة الذين كان لهم الدور في إقامة الكيان الصهيوني، والذي يعتبر حزب الليكود الصهيوني امتدادًا لفكره ونهجه الدموي فكرة إقامة الجدار الحديدي أو السور الحديدي ليس بالمعنى المادي إنما بالمفهوم المعنوي، ويقصد بذلك بناء قوة مسلحة قوية وجيش نوعي مدرب قادر على إلحاق الهزائم بكل الجيوش العربية فيما لو قررت يومًا أن تهاجم الكيان الصهيوني.

وكذلك يهدف من هذه النظرية إلحاق الهزيمة النفسية للجيوش العربية والشعوب العربية من خلال إيصالهم إلى قناعة أنهم لا يستطيعون اختراق الجدار الحديدي، ولا يستطيعون إلحاق الهزيمة بالعدو الصهيوني،



وتأسيسهم من ذلك تمامًا، وتضمنت هذه الخطة الاستراتيجية أعمالًا تكتيكية، مثل الضربات الاستباقية، وتدمير قوة الخصم تدميرًا شاملاً، وإشغاله بنفسه فترة زمنية يكون فيها الجندي الصهيوني قادرًا على إعادة ترتيب نفسه من جديد، استعدادًا للحرب القادمة.

واستمر العدو الصهيوني على مستوى الجيش والقيادة السياسية والعسكرية في تزويد هذا الكيان بالحديد حتى أصبحت من أكثر الدول في العالم نفقة على أمنها وأسلحتها وتدريب جيشها، ففي العام الواحد تنفق دولة الاحتلال عشرات المليارات فقط على الجانب العسكري والأمني، وبرعت أيضًا في صناعة الأسلحة بكل أنواعها، وجنت الأرباح الهائلة من خلال هذه الصناعات، بل مولت كل بؤر التوتر في العالم، فهي تربح أرباحًا طائلة، وفي نفس الوقت تساعد في إشعال الاقتتال بين مجموعات وفئات في كثير من الدول مثل العراق وسوريا والصومال أو اليمن وأثيوبيا والسودان وبعض دول البلقان.

16

ويستمر الكيان الصهيوني في تطوير جيشه ومدنه ومستوطنيه بالجدار والأسلاك الشائكة، والجدار الإلكتروني وأرتال الدبابات والمجنزرات والجرافات (D9)، والأسلحة الأتوماتيكية، وكل أنواع الطائرات في الجو وأنواع الغواصات والزوارق في البحر، وإلى اليوم يقوم العدو الصهيوني بتطبيق إستراتيجية جابوتنسكي.

والقرآن الكريم يتحدث عن بني «إسرائيل» وعن طبعهم ونفستهم وكيفية قتالهم: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ



وَرَأَى جُدْرِي ﴿[الحشر: 14]﴾، وهذا يتجسد واقعًا عمليًا مرئيًا في طبيعة الكيان الصهيوني وحقيقته.

فالعدو الصهيوني جيشًا ودولة وشعبًا ومستوطنات وسجونًا مطوق بالحديد، وإذا ما أراد أن يبنّي بيوتًا أو مطارات أو ملاعب أو مدنًا، فأول ما يفكر به الحديد والسيّاح الحديدي والتحصينات الأمنية.

إنها فعلاً دولة الحديد، الذي تصنعه وتصدره وتصبه رصاصًا مصهورًا على شعبنا في غزّة هاشم، ويسلح جيشها به مجتاحة الضفة الغربية في عملية السور الواقعي، وغيرها من العمليات.

أما الرجل الحديدي فقصته مختلفة عن دولة الحديد، فقد حدثني أحد الأصدقاء الأعزاء أنه تم اعتقاله من بيته في الخليل في ليلة السابع عشر من شهر شباط سنة 2011م، ومباشرة من بيته من منطقة الخليل نقل في البوسطة إلى تحقيق عسقلان، كان هذا الاعتقال الثالث بالنسبة له، ففي الاعتقال الأول سجن ست سنوات، والثاني ثلاثين شهرًا إداريًا، وفي الاعتقال الثالث زج به في التحقيق، وقد اعترف في الاعتقال الأول، فقرر في هذا الاعتقال أن لا يعترف مهما كان التعذيب شديدًا، ومهما كانت الظروف صعبة، وفعلاً الإرادة تصنع المعجزات، فقد مكث في التحقيق 52 يومًا متواصلًا، منها 28 يومًا في تحقيق متواصل، ويعني ذلك أن تبقى مشبوحًا ومقيّدًا بكرسي صغير جدًا ليل نهار، أي 23 ساعة، فقط ساعة واحدة يسمح لك بالنوم أو الراحة.



المهم خرج من التحقيق ولم يتكلم بحرف واحد، وعد ذلك انتصاراً رغم بساطة التهمة الموجهة له، لكنه نصر حقيقي، ففي أقبية التحقيق، الأسير لا يملك إلا الإيمان والوعي والإرادة، وهم يمتلكون كل شيء، الأساليب والقدرة على التعذيب والخبرة والتجربة والوسائل الترهيبية والترغيبية.

في هذه الفترة القريبة من الشهرين كان يتخلل فترة التحقيق الكثير من النقاشات والجدال الفكري والسياسي والعلمي، حول الإسلام والتاريخ والقضية الفلسطينية وحول الغرب والاكتشافات العلمية، فليس كل اللحظات تحقيقاً وشبهاً وضرباً، أحياناً تمر لحظات في التحقيق تنسي الأسير أنه أمام محقق، ربما تعطيه هذه اللحظات القوة في الاستمرار والصمود وعدم الاعتراف، بل تصقله وتزيد من خبرته وقدرته على معرفة عدوه أكثر وربما العكس.

في إحدى الجولات من التحقيق دخل عليه محقق لا يظهر عليه أي نوع من القوة الجسدية أو الذهنية، فهو رجل في الثلاثينيات، عادي جداً دون أي تمييز في شخصيته، ولذلك كله نظر الأسير لهذا المحقق نظرة فيها عدم الاهتمام، ربما ازدراء أو استهزاء، وقد أدرك المحقق ذلك وقرأ في عيني الأسير هذه النية، فقال المحقق مخاطباً الأسير: إن الذي تستهزئ به وتنظر له بازدراء رجل حديدي، قاصداً نفسه، فلم يهتم الأسير بمصطلح (الرجل الحديدي)؛ لأنه اعتقد أن المحقق بدأ يستهزئ، فهو لم يظهر عليه علامات كمال الأجسام، فوزنه لا يتعدى 70 كجم أو أقل.



فسأل المحقق الأسير: هل تعرف ما معنى الرجل الحديدي؟ لم يجب الأسير؛ لأنه لم يكن يعرف.

قال المحقق: ليس هو رافع الأثقال ولا كمال الأجسام ولا هو صاحب العضلات المفتولة، الرجل الحديدي هو الذي يركض مسافة 40 كم متواصلة، ويقطع سباحة 4 كم، ويقطع راكبًا الدراجة الهوائية (البسكليت) 80 كم.

هذه معلومة علمية صحيحة يقاس بها الرجل الحديدي، ولا يصبح الإنسان رجلًا حديدًا إلا إذا قطع هذه المراحل، وليست شرطًا هذه المراحل أن تكون في نفس اليوم، ولكن يشترط أن يقطع كل مرحلة بشكل متواصل ومتتابع دون انقطاع، فلا يجوز مثلاً في مرحلة الركض أن تراح بعد نصف المسافة أو ثلثها، يجب أن تقطعها مرة واحدة دون استراحة.

بعدها تفرس الأسير بنظرة عميقة للمحقق ولملامحه مدركاً أن الإنسان ليس مظهرًا بجسم وليس بضخامة الجسم، قد استفاد هذا الأسير من هذه التجربة وحاول بعدما خرج من التحقيق إلى السجن أن يصل إلى الرجل الحديدي في مرحلته الأولى فكان يركض ساعة، ومرات ساعة ونصفاً، أي ما يقارب 20 كم أي نصف المسافة المطلوبة. فكان الصراع في التحقيق بين الرجل الحديدي وما يملك من الحديد وبين الأسير صاحب الإرادة الفولاذية، التي أذابت الحديد وبقيت صامدة فلا يفل الحديد إلا الحديد.

استفادة هذا الأسير في أقبية التحقيق وعلى جميع الأصعدة النفسية أو العقلية أو الحياتية تعادل قراءة مئات الكتب. والذي يصمد في التحقيق



ويصبر ولا يعترف ويخوض هذه المعركة بوحي وصمود، يكون مؤهلاً أن يصمد في معارك أخرى، كالفقر والمرض والأزمات الاجتماعية أو السياسية وآلام المطاردة والجوع والإضراب عن الطعام.

فمعركة التحقيق تعتبر دورة مكثفة تؤهلك للارتقاء لأصعب المهام والمسؤوليات، ولأخطر المناصب وأكثرها حساسية إذا ما أحسن إدارتها بطريقة حكيمة، وأسلوب واعٍ وبعقلية نافذة وبقلب مفعم بالأمل والتفاؤل والسرور وإرادة قوية.



بين الفرخ والألم

يتلاقى الأسرى في البوسطة من كل السجون، من أقصى الشمال، جلبوع وشطة ومجدو، إلى أقصى الجنوب، النقب ونفحة وريمون والسبع، مرورًا بالوسط الرملية وهداريم ثم عسقلان.

يتلاقى الأسرى من جميع الاتجاهات والفئات، فتح وحماس والجهد والجهة الشعبية والديمقراطية والمبادرة والمستقلون، أو الذين لا ينتمون لأي حزب.

كذلك يتلاقى الصغير والكبير، الشيخ مع الطفل الصغير الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من العمر، ويتلاقى الشاب مع أبناء جيله، كذلك الأسير المريض مع السليم والأسير مع الأسيرة، رغم أن الأسيرات يكن معزولات في البوسطة بينهن وبين الأسرى تفصل غرفة الحديد في البوسطة أو في السجن أو في المحاكم.

يتلاقى في البوسطة أبناء هذا الوطن من كل المدن والقرى والمخيمات، من الخليل جنوبًا، إلى جنين وطولكرم شمالًا، مرورًا بالقدس ورام الله ونابلس، وتلتقي الضفة الغربية وفلسطينيو الداخل المحتل مع غزة هاشم.

تتوحد كل فلسطين في البوسطة، وتتوحد الزمان والمكان ولكن تختلف هذه الوجوه في مسعاها، فكل واحد إلى جهته ووجهته.



فهذا منقول إلى سجن آخر وهذا إلى المحكمة، فيعود بعشرات السنين أو المؤبدات أو أقل من ذلك، وهذا إلى ما يسمى بالمستشفى للفحص أو لإجراء عملية، وهذا للاستئناف، وهذا لتثبيت الحكم، وذلك للتخفيف من الحكم بعد سنوات من السجن، وآخر قد تم أخذه إلى البوسطة يقال له أنت جئت بالخطأ، فيعود وقد أرهقه التعب الجسدي والنفسي.

تلتقي في البوسطة مع السجناء الجنائيين الذين قد اعتقلهم العدو الصهيوني على خلفيات السرقة والقتل وتجاوز القانون والسطو وغيرها.

في البوسطة يتجسد مجتمعٌ كامل، ترسم فيه خارطة الوطن، فتطوف فلسطين الجغرافية، وتلتقي بفلسطين السياسية، وكذلك فلسطين الاجتماعية.

وتدور الأحاديث والنقاشات والحوارات بين الأسرى حول أوضاع السجون وأوجاع كل سجن، يتبادل الأسرى الآراء، ويلتقون بالأصدقاء والأحبة والمعارف.

يبيدي الأسرى الجنائيون إعجابهم بالأسرى الأمنيين، ينظرون إليهم نظرة احترام وتقدير وإعجاب؛ لأنهم يسمعون ويرون أن حياة الأسرى الأمنيين منظمة ومرتبة وقائمة على العلاقات الوطنية، وهناك من يمثلهم أمام إدارة السجون، ويدرسون ويتعلمون في الجامعة، يحسدونهم على قوة شخصيتهم وما يمثلون من مثال ونموذج أمام المحتل، فكثيراً ما كانوا يتمنون أن يصبحوا أسرى أمنيين وأن يعيشوا حياة الأسرى الأمنية، وعلى



عكس حياة الأمنيين في السجن والبوسطة، تكون حياة الجنائيين الذاتية والأنانية، وتعاطي المخدرات وعدم النظام وفقدان الحياة الجماعية، باختصار الأسير الجنائي يفتقد أدنى حس بالمسؤولية، فهو لا يستطيع إلا أن يكون هكذا، في البوسطة يلتقي الأمني والجنائي (المدني)، ويتلقون نفس التعامل من قبل قوات ووحدات البوسطة، ربما في هذه اللحظات تلتقي المشاعر الإنسانية فيما بين الأسرى، جميعاً في كره وبغض هؤلاء المدججين بالسلاح.

إن الذي كان يزعجنا عندما نلتقي مع الأسرى الجنائيين، هو عدم تقديرهم لمنافعهم، فتراهم يدخنون الحشيش دون أن يحسبوا لنا أي حساب، أو يتأثروا ويغيروا من ذلك، والدخان والفوضى والصراخ والكلام البذيء، والمشاكل التي يخترعونها ويفتعلونها مع بعضهم البعض، وأحياناً مع وحدات «النحشون»⁽¹⁾ ومع الأسرى الأمنيين أو حتى مع المارة إذا توقفت البوسطة في أحد الشوارع أو المحطات لسبب ما، ومثل هذه المشاغبات نراها من بعض الأسرى الأمنيين، تحصل ولكن هذه المشاكل قليلة، فالنسبة الغالبة على سكان البوسطة هي الوفاق والانسجام والتراحم والالتزام وتبادل الآراء والاقتراحات والنصائح.

في البوسطة يذوق الأسير الفلسطيني كل ألوان العذاب والحرمان، فالجوع يقطع الأمعاء حتى نشور وندق بأيدينا المكبلة جدران البوسطة، نريد كسرة خبز أو شربة ماء، نتضور جوعاً ولا يسألون فينا ولا يقلقون،

(1) النحشون: قوات أمنية خاصة تقوم بعمليات النقل بين السجون، وتقوم أحياناً ببعض التفتيشات السيئة الصيت لبشاعتها.



وإذا استجاب أحدهم فبعد ساعات وساعات، تكون معدة الأسير قد تقيأت دماً ومراراً لقلة الأكل والتعب والضغط النفسي وقلة الهواء، فلا نكاد نتنسم هواءً نقيًا، ونحن مكдسون في هذه العلبة الحديدية.

نذوق العطش فتجف حلوقنا، ولا يسمحون لنا بأن نأخذ معنا عبوة ماء، وخاصة في أيام الصيف، فكيف يكون الحال عندما يُكدّس أربعون أسيرًا في حافلة كلها حديد، ولا يدخل الهواء إليها إلا من ثقب صغير، ولا يوجد ما يعرف بالمزكان (أو المروحة) ففي شهر آب وتموز تكون درجة الحرارة قد وصلت إلى 40 درجة مئوية.

نذوق برّدًا قارسًا فنجلس على الحديد مكبلين بالحديد، ومن ميزات الحديد أنه يزداد برودة، فتصل برودته إلى العظام، ومع تكرار هذه البوسطات الجامدة المتجمدة، تنتشر الأمراض في صفوف الأسرى، هشاشة عظام وضمور في العضلات وانحيار في أجهزة الأسير الهضمية وغيرها، ومع الزمن أيضًا يصبح عدم الاستقرار الصحي للأسير هو سيد الموقف، فلا تكاد تشعر بالعافية أو الرضى والسلام.

نرى الهمجية الصهيونية تتجسد في سلوك وحدات «النحشون» وحرس الحدود والجيش والمسميات جميعها، المسؤولة عن نقل الأسرى، ترى الهمجية والوحشية والعربدات والصياح والتهديد بالضرب والاستفزاز، واستعراض العضلات والاستقواء على هؤلاء العزل والمكبلين بالأصفاد، نرى المحاولات المتكررة واللحظية في إهانة الأسرى وإذلالهم وتخويفهم وكسر إرادتهم ونفسياتهم، وتخطيط معنوياتهم من خلال التفتيش



أوجاع البوسطة

المتكرر على آلات المغنوميت⁽¹⁾ والمشكيف⁽²⁾، وبعشرة الأغراض وتخريبها والصراخ والصياح والسب والشتيم والعقاب بالزنازين أو الغرامات أو الردع ميدانيًا، فكم من الحالات تم إنزالها من البوسطة والاعتداء عليها.

(1) المغنوميت: جهاز فحص المعادن اليدوي يتم تمريره على الجسم، ويطلق عليه الأسرى «الزنانة».

(2) المشكيف: جهاز كهربائي لفحص الأمتعة بواسطة الأشعة السينية، يتم تمرير الأغراض عبر الجهاز، على أن يفحصها خوفًا من تهريب أي ممنوع، ويتسع لحجم التلفاز مثلاً.





حبة بوظة وكوز صبر

هناك بعض الأحداث لا يمكن أن ينساها الأسير، تكون استثنائية ومجردة وغريبة ربما تؤدي إلى صدمة، فكم من الأحداث الغريبة تحدث في السجن أو البوسطة لا يصدقها الإنسان الأسير، هي طبيعية جداً عند الإنسان العادي الحر الغير مأسور؛ لأنها بسيطة، بسيطة جداً، لكنها عند الأسير غريبة يعمل منها قصة وحكاية، وتمر أيام وهو يتحدث عنها للأصدقاء عندما يعود إلى السجن.

الأسير الذي يشعر بالحرمان على مدار الساعة واللحظة، يرى كل شيء مدهش، يتحول في بعض الأحيان إلى طفل يستمتع بأبسط الأشياء، ويغضب لأصغرها، ليس لأنه يمتلك عقلاً صغيراً أو طفولياً، إنما لأنه وضع في مكان معلق، في عالم خاص له قوانينه وطبيعته وواقعه، وفرضت عليه عادات وتقاليد وثقافة معينة، جعلته يفكر بهذه الطريقة أو تلك.

إن الأسير طفلٌ أحياناً، يندهش لمجرد رؤية شخص من بلده على التلفاز، أو لمنظر طبيعي أو لطبخة دسمة، أو لأي شيء مهما كان بسيطاً.

يقول صاحب كتاب «عالم صوفي»، إن الفلاسفة والأطفال يشتركون في صفة هي (الدهشة)، ترى الطفل يسأل ويستفسر عن كل شيء يراه غريباً، يريد أن يعرف ويسأل عن كل الظواهر الكونية والإنسانية والاجتماعية ويريد لها جواباً، يندهشون لكل شيء ولا يمرون على الأشياء والأشخاص والظواهر مرور الكرام، وكذلك الأسرى يندهشون ولا يصدقون.



ففي إحدى البوسطات وأنا أنتظر عودتي لسجن عسقلان، وكان ذلك في سنة 2002م، وأنا في معبار⁽¹⁾ الرملة، حيث كنا نترك في المعبار ثلاثة أو أربعة أيام، وإذا بعامل المرطبات قد وزع علينا وجبة الغداء ومعها حبة بوظة، قلنا هل هذا لنا؟ ربما قد أخطأتم، فهذه البوظة للسجناء الجنائيين فنحن الأمنيون محرومون منها، لا يحضرونها لنا في الكنتينة فهي من المشتريات الممنوعة عند إدارة السجون؛ لأن فيها شيئاً من الرفاهية والمتعة، فهم يريدون ألا نشعر بذلك، فقال العامل: هذه لكم فقد أعطوني عددًا من حبات البوظة كي أوزعها على كل واحد يتواجد في المعبار بغض النظر عما إذا كان أمينًا أو جنائيًا.

رغم أن حبة البوظة كانت من النوع العادي ولم تكن من النوع الفاخر، رغم ذلك فقد أكلناها بمتعة وتذكرنا وقتها بأننا خارج السجن، لقد خففت حبة البوظة الباردة حرارة السجن وشفيف البوسطة، وما زلت أتذكر ذلك اليوم وتلك اللحظة التي لم تتكرر رغم مرور 13 عامًا عليها.

ومرة أخرى وفي اليوم التالي أحضروا لنا مع وجبة الغداء (كوز صبر)، يا الله كم كان منظره جميلًا وطعمه لذيذًا! أردت أن أحتفظ به وأعود به للسجن، لكنني خفت أن يهرس أو يضيع أو يفسد - لحرارة الجو - فأكلته، ومنذ ذلك اليوم لم يتكرموا علينا بحبة صبر جديدة، ربما حسبوا حسابًا أن نزداد صبرًا ونتزود بهذه الفاكهة الحلوة اللذيذة الجميلة، فهم مثلًا لا يحضرون لنا الصبر، الرمان، البطيخ، الشمام،

(1) المعبار: المكان المخصص لتجميع الأسرى من كافة السجون فيه يُصار إلى نقلهم كل إلى وجهته عبر البوسطات، هناك معبار رئيسي في الرملة.



التوت، كل أنواع الفواكه إلا ما ندر، ومن النوعية الرديئة وتكون في نهاية موسمها، وبالذات الصبر والتين لا يسمحون لنا بشرائهما حتى على حسابنا ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ﴾ ١ ﴿وَطُورِ سَيْنِينَ﴾ [التين: 1 - 2]، فالتين والزيتون كلاهما باقٍ في هذه الأرض لا ينضب، ينبت في كل أنواع التربة فيتحمل كل تقلبات الطقس، ينبت في الصحراء القاسية الجافة، وفي الجبل والوادي والسهل، فيظل أخضر في الصيف والشتاء، ولا يتأثر بالعوامل الطبيعية ولا بعوامل فعل الإنسان فأينما رميتُ لوْحًا من الصبر أو جزءًا منه نبت ونما، وإذا به شجرة صَبَّار يانعة مثمرة واقفة، تدافع عن نفسها بأشواكها إذا حاول عدوها أن يجرفها أو يقتلعها أو يحطمها.

بعدما عرفت مميزات شجرة الصبر تمنيت لو أنني أخذت الكوز معي للسجن وتقاسمته مع إخواني، فقد أدركت أنه عصي على الذوبان، وأدركت كذلك أن الصبر لأنه منتجنا فهو أحمل وأقدر وأجمل، أما البوطة صناعتهم، فهي سريعة الذوبان؛ لأنها سريعة وضعيفة، ليس لها جذور.





الإفراج بالخطأ

الشهيدان: نعمان طحاينة، صالح طحاينة

لقد كان تأثير اتفاق «أوسلو» على واقع الأسرى كبيرًا وعميقًا ورافقه الكثير من السلبيات أهمها أنه لم يفرج عن الأسرى الذين يتضمنهم الاتفاق، أو لم يفرج عن الأسرى الذين حكموا أحكامًا عالية أو مؤبدات، على خلفية قتل جنود الاحتلال أو جرحهم.

31 وفي سنة 1995 م، قامت إدارة السجون بنقل كل الأسرى الفلسطينيين من السجون في الضفة الغربية وقطاع غزة إلى السجون في الداخل الفلسطيني، فقد أفرغت سجون رام الله ونابلس وجنين والخليل والظاهرية والفارعة، وتم نقل الأسرى إلى عسقلان ونفحة والسبع والنقب، وفيما بعد تم بناء سجون جديدة مثل سجن ريمون وجلبوع وإيشل في بئر السبع بعد اندلاع الانتفاضة الثانية لاستيعاب الآلاف من الأسرى في هذه السجون المحصنة.

وكان في سجن جنيد سنة 1995 م أسرى يعتبرون الأخطر من الناحية الأمنية، فهم من ذوي الأحكام العالية، وكان من بين هؤلاء الأسرى الشهيد صالح طحاينة حيث كان محكومًا 30 عامًا، وكان أيضًا الشهيد نعمان طحاينة، محكومًا 3 أعوام، وكلاهما من نفس البلد، السيلة



الحارثية بمحافظة جنين، وكلاهما نفس الانتماء لحركة الجهاد الإسلامي، ومن نفس العائلة، لكنهما استشهدا في فترات متباعدة، فصالح استشهد في سنة 1996م بعد هروبه من السجن بأشهر، ونعمان استشهد في سنة 2004م اغتيالاً في وسط مدينة جنين.

لقد علم الاثنان أنه يوجد حملة تنقلات من سجن جنيد إلى السجون الصهيونية الأخرى، وقد اتفقا أن يبديا اسميهما، وقد جاء اسم صالح طحاينة لينقل لسجن نفحة، أما نعمان فجاء اسمه نقلاً إلى سجن النقب، نعمان كان وقتها قد بقي له سنة للإفراج عنه، أما صالح فقد بقي له أكثر من عشرين عاماً، ولذلك لا يمكن أن يتم نقله إلى سجن النقب، فهذا السجن لا يستوعب إلا الأحكام الخفيفة، ممن يتبقى له بضع سنوات، فما كان من نعمان إلا أن يقترح على صالح أن ينتقل مكانه إلى سجن نفحة، وصالح ينتقل إلى سجن النقب على أن يتحل كل واحد اسم الآخر، نعمان أصبح اسمه صالح ودخل سجن نفحة على أنه صالح طحاينة، وصالح أصبح اسمه نعمان ودخل سجن النقب وهو يتحل هذا الاسم، ولقد غامر نعمان بذلك؛ لأن اكتشافه له ثمن، وفعلاً بعدما تم كشفه نقل إلى التحقيق وزادوا حكمه سنة إضافية، وعندما وصل صالح لسجن النقب، مكث عشرين يوماً وربما أكثر وهو يتخفى ويتستر، وخاصة على العدو، وظل هكذا في هذه الفترة وقد اتفق مع أسير آخر اسمه عامر زيود قد اقترب إفراجه، وفي يوم الإفراج عن عامر خرج مكانه صالح على أنه هو الأسير المفرج عنه، وعندما تأكد الأسرى الذين كانوا يساعدون صالح أنه وصل سالماً ولم يكتشفه أحد، قالوا لعامر الآن أنت طالب بالإفراج.



وفعلاً قام الأسير عامر زيود، بالمناداة على أحد الضباط وقال له إن موعد الإفراج عني اليوم، ولم يطلق سراحه، فقال له الضابط: اليوم أفرج عن شاب اسمه عامر زيود، فقال له عامر: أنا عامر ها أنا أمامك!

وقتها جنّ جنون إدارة السجن، وأدركت أنها أفرجت عن الشخص الخطأ، صالح طحaine الآن يتنسم عبق الحرية، ومباشرة تم سحب عامر على التحقيق، وكذلك نعمان ومحامته سنة زيادة على حكمه، وأخذت المخابرات بكل قواتها وأجهزتها وأعوانها تبحث عن صالح طحaine الذي نفذ عملية هروب محكمة، وضلل أجهزة إدارة السجن، مكث صالح مطارداً لمدة ستة أشهر أو أكثر قليلاً، ينتقل من مكان إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى بين مدن الضفة الغربية.

وكان وقتها أيضاً يعيش في ظروف أمنية صعبة جداً، فمن ناحية كانت أجهزة السلطة حريصة على إثبات وجودها وسيطرتها وإحكام قبضتها على الضفة الغربية خاصة، وأنها كانت في بداية تشكيلها وعملها، ومن ناحية أجهزة المخابرات الصهيونية التي بذلت كل جهودها للعثور على الأسير المطارّد صالح طحaine، وربما في تلك الفترة لم يكن عدد المطاردين يعد على الأصابع، فعاش المجاهد صالح طحaine فترة عصيبة رهيبة من المطاردة، فقلة الناصر وصعوبة الظروف والحذر الشديد كانت سيدة الموقف.

لم يستطع الاحتلال رغم ملاحقته ليلاً ونهاراً أن يعيده الى السجن ولا أن يغتاله مباشرة برصاص قواته الخاصة أو جنوده، إنما بعث له أحد أو بعض الخائنين لقتله وتصفيته، فوجد الشهيد البطل صالح في أحد الشقق



في مدينة رام الله قد قتل خنقاً وحرقاً وطعنًا، ويبدو أن الشهيد كشف قاتله وأخذ يدافع عن نفسه بأظافره وروحه وجسده الأعزل، وارتقى شهيداً على أيدي حثالة مجرمة باعت نفسها بثمان بخس، وحتى هذه اللحظة لم يعرف من يقف وراء قتل الشهيد صالح، وظلت قصة استشهاده غامضة، ويومها قامت السلطة الفلسطينية باعتقال بعض الأشخاص وحقت معهم، لكنها لم تصل الى الحقيقة أو على الأقل أنا وزملائي وأصدقاء صالح لم نعرف من هو الخائن الذي قتل الشهيد صالح طحاينة.

ونعمان كذلك استشهد سنة 2004م بعد مطاردة دامت سنوات، ويعتبر اغتيال الشهيد نعمان طحاينة خسارة كبيرة للشعب الفلسطيني ولحركة الجهاد الإسلامي حيث تم اغتيال علم كبير، فنعمان كان من الشخصيات المفكرة والمثقفة جداً، عميق النظر والفكر، زاهر المعلومات والمعرفة، متواضعاً جداً لم يكن يهوى الظهور على وسائل الإعلام، رغم تألقه في كل الجوانب، كان مكتبة متنقلة، ولم يترك إرثاً لأبنائه إلا الكتب وتاريخه الناصع وسمعته الطيبة.



خاطرة

البوسطة لا يعرفها إلا من تقلب على كراسيها الحديدية، وذاق برودتها وحرّها، وزكم أنفه برائحتها التنتنة واختنق بغبارها وضيقها ورطوبتها القاسية؛ لذلك فالبوسطة قصة، حكاية، رواية، وجع، همسات، شهقات وآهات.

البوسطة، وكأنك تساق إلى الموت وأنت تنظر، البوسطة، حالة من الترقب والانتظار، تنتظر اللحظة التي تنهي فيها المشوار حتى تنزل في أي مكان أو أي زنزانة أو قفص أو سجن أو غرفة انتظار المهمته⁽¹⁾؛ لأنها ستكون أحسن وأفضل ألف مرة من التواجد في البوسطة، فعلى الأقل تشعر بشيء من الإنسانية، تنغوط وتقضي حاجتك، تشرب الماء، يفك قيدك ولو قليلاً، تجد ربما كسرة خبز تأكلها تخفف عنك آلام المعدة التي تتضور جوعاً، تستريح، تتنفس الصعداء، تمرن يديك المكبلتين أكثر من عشر ساعات، تمشي بعض الخطوات، فقد علم الكرسى في أنحاء جسدك، استعداداً للبوسطة القادمة، أو لتكملة البوسطة نفسها.

البوسطة هوس الأسرى، فكم من الأسرى تنازلوا عن العلاج وكم رفضوا الذهاب للفحص أو إجراء عملية جراحية أو غيرها في المستشفيات، و فقط السبب كان البوسطة، آلامها وصعوبتها.

(1) همته: لفظة عبرية تعني «انتظار»، وهي المكان المخصص لتجميع الأسرى لانتظار البوسطة حين الانتقال إلى أي مكان.



ما بين مصر وسوريا، نفحة وشطة
 ما بين شطة ونفحة، سجون في المنفى شتى
 والرحلة جابت بأسرى شتى
 وعيونهم جابت حقولاً شتى
 تمور بهم جبال الضفة والذكريات
 محملة برائحة البلاد ودمعة
 ويتلوون في السهول ببسمة
 أيها السجان مهلاً علينا
 مصر وعاء أراك علينا
 صدفة كانت دولتك
 وعبدًا ما زلت بلهفتك
 تخاف اليقظة
 تجدني قد عدت سيدك
 فالمكان لا يرى الآن سواي
 وتلفت منبوءًا، وأنا امتزجت مع السهول بنظرة



نعم أنت سجان عرفنا، نعم أنت محتل عرفنا

ترفع صوتك

وتبدي إعجابك بربك

وأنا جالس بالقيود

وإذا ما انحنيت أنت لقدمي، نسترد قيدك

وكم من الأسرى استعجلوا في البت في قضاياهم، وحكم عليهم
بأحكام عالية؛ لأنهم أرادوا أن يرتاحوا من البوسطة، ولا يريدوا أن يظلوا
يترددون على المحاكم من خلال البوسطات.

البوسطة: عملية قتل بطيء، وإشعارك بالاستعباد وأنت ترى
هؤلاء الجنود المدججين بالسلاح، وأنت الأعزل المثقل بالقيود في الأيدي
والأرجل، وكأنك تعيش فترة الأسياد والعبيد، وأولئك الذين كانوا
يباعون في بلاد أوروبا، قادمين بهم من عمق أفريقيا السوداء، أو أولئك
الذين ماتوا بمئات الآلاف تحت سياط الجلادين وهم يحملون الحجارة
الثقيلة كي يبنوا أهرامات مصر. لقد بنيت هذه الأهرامات على جماجم
العبيد وبجماجمهم، كانت الحجارة تسحق عظام هؤلاء العبيد، بنوا صرح
الأهرام على حساب الإنسان وروحه وكرامته ودمه المسفوح.

وهكذا تعد البوسطة، تبني الكيان الصهيوني وتضخمه على حساب
هذا الشعب المذبوح.



ولكن الذي يعزينا نحن سكان البوسطة أننا نملك إرادة وما زلنا،
والبوسطة لم تمتنا كما مات أولئك العبيد، وإنما زادتنا كرهاً لهم ووعياً
بحقيقتهم، وحباً في المقابل لأرضنا وشعبنا ووطننا.

البوسطة: لا تدري فيها هل أنت مقيم أم مسافر، تتحير تضطرب
أياماً وليالي وأسبوعاً وربما شهراً، تمكث في البوسطة، بل سنوات وأنت
تطوف بك البوسطة ولا تدري أين المستقر.

البوسطة: الألم الدائم والوجع المستمر، وتنقسم أوجاعها على سكانها
وحسب أحكامهم وترحالهم وتنقلاتهم.



رحلة غريبة للبحر الميت

تستعمل المخابرات الصهيونية كل الوسائل الترهيبية والترغيبية من أجل الحصول على الاعتراف من الأسير الفلسطيني في أقبية التحقيق، تطبق نظرية ميكافيلي: «الغاية تبرر الوسيلة».

فالغاية عندهم الاعتراف والحصول على المعلومات ولو كان ذلك عن طريق الدجل والكذب والترهيب والترغيب والتعذيب الجسدي والنفسي والمعنوي، وكم من الأسرى الفلسطينيين قضوا شهداء نتيجة هذه الأساليب الوحشية التي يستعملها المحققون في أقبية وزنازين التحقيق.

وكم من الأسرى مكثوا أيامًا وأشهرًا، ولم يتكلموا ولم يعترفوا ولو بكلمة واحدة، وصمدوا صمودًا أسطوريًا رغم كل الوسائل التي استعملت من أجل نزع الاعتراف منهم.

التحقيق معركة كاملة وشاملة، من تسلح بالإرادة والوعي ينتصر فيها، ومن يفتقد هذين العنصرين ربما ينهار أو ينهزم أو يعترف جزئيًا أو كليًا.

وكثير من القصص والحكايات والروايات العجيبة والغريبة التي تحدث في أقبية التحقيق في القصص الحزينة والمؤلمة، وكذلك القصص التي تستحق أن تكون نبراسًا ونموذجًا تتعلم منها الأجيال.



كان في بداية انتفاضة الأقصى شخصية فلسطينية مجاهدة قد ترددت على السجون مرات ومرات، ومكثت في السجن سنوات طويلة، قد اشتعل الرأس شيباً ووهن العظم منه، ولكن هذا الرجل كان يمثل الشخص الفلسطيني المجاهد المتواضع المتمرس في الحياة، صلب، راسخ القدمين وساقه القدر لأقبيّة التحقيق، الجملة وصفد وعسقلان والمسكوبية، قد عرفته تلك الجدران كثيراً، وكل مرة يخرج منتصراً.

مثله مثل العديد من القيادات والكوادر المناضلة والمجاهدة، ورغم تقدم السن فهو الآن يقارب الستين عاماً وأكثر، ولكنه يملك إرادة فولاذية، فهو المبادر دائماً والسباق للعمل الوطني والنضالي، في السجن اسمه في قائمة المضربين عن الطعام دائماً، وفي كل خطوة يخطوها الأسرى مطالبين بحقوقهم، تراه يسرع ليكون محرّضاً أو مشاركاً ومشجعاً لهم.

40

في أثناء وجوده في التحقيق استعملت المخابرات كل الأساليب الشرعية واللا شرعية، الصحيحة والخاطئة، الترغيبية والترهيبية، فهذا الرجل لا يستسلم ولا يعترف ولا يجعلهم ينتصرون عليه، وفي أثناء التحقيق وخلال نقاش وتحدٍ بين أحد الضباط، وبين هذا الأسير، قال له ضابط المخابرات: إذا جعلتك تذهب للبحر الميت رحلة هل تعترف؟! فتعجب أبو همام النتشة، وقال له: أنت لا تستطيع أن تخرجني من هذا المكتب أو تنقلني لسجن آخر أو تخرجني من التحقيق، فكيف تريد مني أن أصدق أنك ستذهب بي للبحر الميت؟ فقال له المحقق: أنا أعدك أن أذهب بك إلى هناك، وغداً عليك أن تعدني أنت أن تعترف. فقال له أبو همام: أعدك



وهو غير مصدّق أن هذا المحقق يستطيع. وتفاعاً أبو همام وإذا بالمحقق قد أتاه في اليوم التالي باكراً ومعه بدلة رسمية وحذاء جديد، وقال له: البس وجهز نفسك كي ننفذ ما اتفقنا عليه كي أفي لك بوعدتي! وفعلاً لبس أبو همام البدلة والحذاء، ورتب لحيته البيضاء، وصعد إلى سيارة يقودها أحد رجالات المخابرات، وبجانبه شخص آخر، وجلس أبو همام بين اثنين آخرين منهم في المقعد الخلفي، وكأنه ليس أسيراً، سيارة مدنية ولباس مدني، وانطلقت السيارة بشكل عادي جداً بين السيارات، اللهم أن الأسير أبو همام مقيد من يده مع أحد ضباط المخابرات بأصفاد من حديد، نزلوا إلى متنزه في منطقة رأس العين، بعدها انطلقوا من مركز تحقيق الجلطة أو بيتح تكفا، شربوا القهوة والعصير، وقالوا لأبي همام: هل صدقت أم لا؟ والناس ينظرون إليهم على أنهم عاديون جداً من رواد هذا المتنزه، قالوا له: الآن سننطلق إلى البحر الميت، وفعلاً من رأس العين إلى البحر الميت، وظلت تسير السيارة إلى هناك حيث نزلوا على الشاطئ، وقالوا له تستطيع أن تسبح وتستحم، وهو لا يصدق، وفعلاً خلع قميصه وسبح بسرّ الواله وسر كثيراً رغم إحاطة ضباط المخابرات به، بعد ذلك ذهبوا إلى كازينو أريحا، وهناك طلبوا له ما لذ وطاب من أطباق الأكل حتى إذا شبع طالبوه بالاعتراف قائلين: الآن عليك الدور والإيفاء بوعدك، فقال لهم: أنا لم أعدكم بشيء؛ لأنني أصلاً ليس لدي أي شيء أقوله لكم، فجن جنونهم.

تحولت هذه الشخصيات اللطيفة في لحظة إلى جبابرة وغلاظ، قاموا بالصراخ عليه وشتمه وسبه وتقييده من جديد وبعنف، وأخذوه بالسيارة من الكازينو إلى سجن تحت الأرض، يقال إنه سجن في منطقة صفد، هذا



السجن للتحقيق العسكري ولترهيب الشخصيات الذين يظنون أن لديهم ما يقولونه، ويوضع الأسير في زنزانة مظلمة تحت الأرض بست درجات، ولا يسمع إلا أصوات الصراخ والصياح والبكاء المصطنع كي ينهار. يخيل للأسير وهو في هذا السجن أنه لا يمكن أن يخرج منه وهو على قيد الحياة، كان في هذا السجن عبد الكريم عبيد، ومصطفى الديراي اللذين اختطفوهما من لبنان كي يحققوا معهما في البحث عن الطيار الصهيوني المفقود منذ سنة 1986م «رون أراد»، وكذلك اقتيد لهذا السجن القائد مروان البرغوثي سنة 2002م في فترة التحقيق. وقد عرفت هذه الزنازين المظلمة الكثير من أبناء شعبنا الفلسطيني المقدام.

لقد انقلبت البوسطة من رحلة للبحر الميت إلى رحلة تحت الأرض في صفد، إنها المخابرات الصهيونية التي تستعمل كل أساليب التناقضات كي يعترف الأسير الفلسطيني، فتتحول المخابرات وفي لحظات من الحرص على صحة الأسير وبصره وأهله، إلى المحرضين على موته وقتله وتدميره وتحطيمه.

حطت بوسطة البحر الميت في صفد، ويبدو أن هذا البلد له نصيب من اسمها، فما أكثر وأشد أصفادها، وما أعتم زنازينها، وما أفضع البوسطات الذاهبة إليها، إنها تصفد القادمين إليها بأغلالها وظلامها وشؤمها، وتصم آذانهم بصرخات جلادها وإجرامهم.



المعتقل يحرر نفسه عنوة

ذلك الشاب صاحب البشرة السوداء، من سكان غزة هاشم، فارح الطول، صاحب قوة جسمية، حكم بالسجن عشر سنوات أو 11 سنة، لم يصبر على آلام السجن وقسوته فله عدة محاولات هرب، ولكن أن يهرب من البوسطة الصلبة الحديدية المحكمة الإغلاق، فهذا ما لم يصدقه أحد، حتى السجنانون، الذين يرافقون الأسرى في تنقلاتهم وترحالهم لم يستوعبوا ما جرى، أيعقل أن يهرب أسير من البوسطة وهي تسير، وكيف حدث ذلك وماذا حدث له، وكيف تم العثور عليه.

في ذات يوم من أيام الأسرى، في ربيع سنة 2002م حيث كانت الضفة وغزة تلتهب ناراً تحت أقدام المحتلين، والشهداء بالمئات، والجرحى بالآلاف والأسرى كذلك، حيث استقبلت سجون الاحتلال الآلاف من أسرى الشعب الفلسطيني، وقد زاد عدد الأسرى وتضاعف، حتى تجاوز 11 ألف أسير.

وكان الأسير محمد أبو جاموس مع أولئك القادمين إلى سجون الاحتلال في سجن عسقلان، وكان في بداية سجنه لم يكمل السنة، وكما هو معروف بأن الأسير الموقوف يمكث فترة يتردد على المحاكم، وبعد الحكم عليه يرتاح قليلاً من ذلك الكابوس الذي اسمه البوسطة، والأسير محمد أبو جاموس كان على موعد مع الحرية من خلال البوسطة، وأثناء



ذهابه للمحكمة قرر أن يهرب من البوسطة نفسها، أخذ معه سلكًا صغيرًا وإبرة كي يفك القيود «الكلبشات»، ووضع في رأسه كيف؟ ومن أين؟ كيف ممكن أن ينفذ تلك العملية الجريئة والذكية التي لم يتوقعها أحد من الأسرى، ولا من السجانين، ولا من حراس البوسطة.

كان يومها قد تم تقييده مع الأسرى، أي كانت له يد حرة طليقة يحركها كيف يشاء، واليد الأخرى مربوطة مع يد أسير آخر.

في أثناء الطريق على مقربة من شارع ملتوٍ، حيث تخف سرعة البوسطة وإذا بالأسير محمد أبو جاموس فجأة يفك قيده، فتصبح يده الالئتان حرتين، ثم يفك قدميه ويتفاجأ الأسرى جميعهم وخاصة من يجلسون بجانبه، وعندما خفت البوسطة سرعتها فإذا به يخرج قدميه أولاً من شبك البوسطة، حيث لا يتجاوز طوله 40 سم، وارتفاعه 20 سم أو أقل، ولأن أبو جاموس خفيف الجسم ورشيق وسريع الحركة، ويمتلك لياقة بدنية عالية، سريعاً ما أخرج أرجله ثم وسطه وجسمه وظهره. ثم بقيت يده وقد أمسك بهما حافة الشباك، الذي خرج منه وبسلاسة وسهولة والبوسطة تسير قفز على جانب الشارع، لم يشاهده أحد، سار مسرعاً في الحقول باتجاه الشمال من مدينة الرملة، والرملة هو المكان الذي سوف يكون المحطة الأخيرة التي ينزل فيها الأسرى، وبعدها يتوزعون من جديد، كل إلى سجنه أو المكان الذاهب إليه.

يكشف الحراس وقوات «النحشون» أن هناك أسيراً مفقوداً، فجئن جنونهم حينما عرفوا أنه هرب من البوسطة وهم لا يعلمون، بل لم يشعروا



به، أخذت الشرطة الصهيونية تبحث عن الأسير محمد أبو جاموس بقوات الجيش والمخابرات الصهيونية. ثلاثة أيام ومئات أفراد الشرطة بل الآلاف تحركوا في الاتجاهات الأربعة من مكان الهروب بحثًا عنه.

تحركت مئات السيارات وكلاب الحراسة، ثلاثة أيام ليلاً ونهاراً دفعت وقتها قوات الاحتلال الملايين كي تعثر عليه، حتى إنهم نشروا في صحيفة «يديعوت أحرونوت» الصهيونية: الأسير الفلسطيني الذي أوقف دولة كاملة على أرجلها لمدة ثلاثة أيام.

بعد البحث والتحري والملاحقة، وجدوه في دار مهجورة قريبة من مدينة طولكرم على حدودها، وجدوه في حالة تعب وإرهاق شديدين، بل في حالة جفاف شديد من الطقس، ولو لم يجدوه لربما فقد حياته.

قيل يومها إنه قد أكل من بعض الثمار والمزروعات التي كانت قد رشّت بالمبيدات الحشرية والمواد الكيماوية الخطيرة، هذا ما سبب له الجفاف والتعب، لم يكن أحد من الفلسطينيين قد عثر على الأسير محمد أو رآه أو ساعده، وكذلك لم يستطع تكمله مشواره في الهروب، ولم يصل حتى إلى قرية أو مدينة فلسطينية، ظلّ متخفياً ثلاثة أيام في مناطق تحت السيطرة الصهيونية، وقد تمت معالجته، ثم عزل ما يقارب السنة وأكثر، وحكم عليه بالسجن 11 عاماً، وأُفرج عنه، وهو الآن يعيش مع زوجته وابنته في غزة حرّاً طليقاً.





معتصم رداد يصارع الموت

ذلك الشاب الجميل الوسيم من بلدة صيدا بمحافظة طولكرم، تلك القرية التي قدمت عشرات الشهداء من أصدقاء الأسير المجاهد معتصم رداد حيث معظم رفاقه قد رحلوا شهداء، أمثال لؤي السعدي وصالح كركور وعلي أبو خزنة.

أما الأسير معتصم فقد كان قدره أن يساق إلى السجن بل إلى الموت البطيء، بل إلى الموت آلاف المرات.

فأن تكون سجيناً، هذا يكفي أن تذوق العذاب والألم والمعاناة الدائمة، فكيف إذا كنت سجيناً ومريضاً، والمرض خطير وقاتل، فكيف يكون الحال! إن ذلك ما لا يطاق وما لا يحتمله إنسان.

اعتقل معتصم رداد في سنة 2006م وحكم عليه بالسجن عشرين عاماً، وفي سنة 2007م بدأ يعاني من الألم في بطنه ومعدته، يتقيأ الأكل ويعاني، ومنذ ذلك اليوم وهو يعاني فيقولون له هذه آلام عادية، وتارة يقولون له سرطان، وتارة التهابات حادة، ويمكن فيما يسمى بمستشفى الرملة ما يقارب أربع سنوات، والوضع في المستشفى لا يُطاق ولا يحتمله إنسان عادي، ويستقر حاله الصحي على أخذ دواء الكورتيزون كل يوم، وإبرة كينماوي كل 8 أسابيع، ويدوي ويختلف معتصم ويتغير حاله ولونه



لأسوأ بعدما كان يتفتح كالورد الجوري، يذبل ذلك الشبل الرائع فمرضه وسجنه وما تعرض له يهد الجبال، لكنه يثابر ولا يشتكي ولا يطلب من أحد مساعدته، يستحي هذا الشاب الطاهر، يقاوم الموت والجوع والألم، كنا نراه يعصر نفسه ويتأوه ويصمت وينزف دمًا ودمعًا.

لقد مرت سنوات السجن عليه ببطء، فكان كل يوم وكل شهر وكل لحظة فيها قصة، وفيها درس وفيها ذكرى وفيها ألف صفحة يمكن كتابتها، أو يمكن أن تخطها دماؤه النازفة وشرائنه التي تتقطع وتتمزق دائمًا ألما.

واستمر الحال وما زال، وفي أواخر سنة 2013م وبالتحديد في شهر كانون الأول، كنا على موعد مع شتاء قارس ومع أمطار غزيرة وثلوج بيضاء غطت وجه فلسطين، وألبستها الحلة البيضاء الناصعة.

كنا يومها في سجن هداريم، نرقب شاشات التلفاز وتلك المناظر الجميلة التي لم نعد نشعر ونلمس برودتها ونتحسس صقيعها وثلوجها، فقط كنا نرقبها ونشاهدها ونتخيل أننا وسط أكوام الثلوج نمارس هوايات الطفولة علنا نخرج من طوق السجن المزدحم بكل هموم البشر وأوجاعهم.

في هذه الأجواء التي رحلنا أثناءها خارج السجن، كان الأسير معتصم على موعد مع البوسطة، فقد جاء موعد أخذ الإبرة الكيماوية، تلك الإبرة المليئة بالمواد الكيماوية، يأخذها معتصم في الوريد أربع ساعات مستلقيًا على سرير ومقيد اليدين، ونقطة تتسرب بتلك الشرايين، ونذهب نحن الأسرى أصدقاء معتصم كي نقنعه بأن يذهب لأخذ الإبرة، وهو يقول: لا أريد أخذها



فكما ترون الجو بارد جداً، والبوسطة تخرج الساعة التاسعة ليلاً، وقبل يومين لا آكل شيئاً، وبدلاً من أن تخفف عني الإبرة تزيدني وجعاً وهمّاً وقهراً.

ونحن الخائفون عليه نتردد أن نقنعه أن يذهب أم لا، فإن ذهب للمشفى وعاد أكثر تعباً ومرضاً نندم على أننا قمنا بإقناعه، وإن لم يذهب وتردى وضعه الصحي نندم؛ لأننا لم نضغط عليه أكثر كي يذهب ويأخذ الإبرة.

ما أصعبها على الإنسان عندما يخير بين الموت والموت، بين الألم والألم، بين القهر والقهر، ولا تدري أيهما أخف عليك، وأخيراً يقرر الأسير معتصم أن يخرج للبوسطة على أمل أن تتم السفرية في سيارة خاصة مريحة أكثر من تلك العلبة الحديدية، ويخرج معتصم في منتصف الليل من سجن هداريم، بهوموه وجوعه ويحترق الليل ويصل لمشفى الرملة ويأخذ الإبرة ويعود بالبوسطة المشؤومة، ويعيدونه في سيارة خاصة؛ فقد عاد وكأنه يعلن موته، لكنه يفقد للصوت، عاد مريضاً أكثر، وتعباً أكثر وينزف دمًا ولم يتكلم بكلمة، تجمّعنا حوله ندعوه للطعام والشراب، يروي لنا ماذا حدث معه، لكنه بدون كلام، وكأنه يقول: لقد قلت لكم إنهم لن يقلقوا علي، ولن يهتموا بمرضي، فقد عدت بالبوسطة التي شلت أركاني من جديد.

لم نفعل شيئاً؛ لأننا لم نستطع وقتها إلا أن نصمت وننظر إليه محزونين على وضعه لائمين أنفسنا.

أحضرنا له الدكتور وقرر أن ينقله مباشرة لمستشفى «مئير» القريب من سجن هداريم، مكث فيه أسبوعاً وقد تحسن وضعه، ثم تم نقله إلى



مشفى الرملة حيث مكث ما يقارب الشهرين، وفي أثناء هذه الفترة كان يتردد على الأسير معتصم عدة أطباء مختصين قرروا أن يجروا له عملية جراحية، وهي استئصال جميع أمعائه، وقد قالوا إنه سيحدث معه كذا وكذا، وكان الأسير معتصم في البداية يريد أن يجري العملية، كان يرأسلنا، حيث كتب: «إخواني الأعزاء، أنا ذاهب إلى الشريح، سوف يستأصلون كل أمعائي، أريد أن أتخلص من هذه الآلام».

لكن معتصم ولأسباب كثيرة، بعدما قالوا له إن موعد العملية في اليوم الفلاني بعد أسبوع، رفض التوقيع على العملية، وما زال يتردد على المشفى والكورتيزون يتردد في شرايينه ودمه، والإبر الكيماوية ما زالت تهتك أمعائه، وتكوي جلده وعظامه.

50

وما زال الأسير المجاهد معتصم يصعد إلى البوسطة مقيد الرجلين واليدين، ويموت من البوسطة وفي البوسطة وقبل البوسطة وبعدها. سلامًا لمعتصم وسلامًا على جرحه النازف، ودعاءً خالصًا له بأن يفرج الله كربته ويزيل همه ويشفيه ويسلمه.



تنقلات إجبارية

تستعمل إدارة السجون كل الأساليب والوسائل كي تقتل الروح الوطنية في داخل الأسير الفلسطيني، تحاول بكل أساليبها المبرمجة وخططها أن يظل الأسير رقمًا، شيئًا لا قيمة له، أن يخرج بلا روح وبلا قلب وبلا عقل، وبلا مشاعر إيمانية أو وطنية وحتى إنسانية، فمنذ أن يعتقل إلى لحظة الإفراج، تظل هذه السياسة المنهجية تمارس ضد الأسير.

ومن هذه الممارسات التنقلات الداخلية بين الأقسام وبين الغرف وبين السجون، والهدف من ذلك ألا يستقر السجين، ألا يرتاح، أن يظل مستعدًا للرحيل، وهذا يعني أن الأسير الذي ينتظر النقل من غرفة إلى غرفة، أو من قسم إلى قسم آخر، أو من سجن إلى سجن آخر، تراه لا يقرأ ولا يمارس الرياضة، غير مرتاح جسديًا ونفسيًا.

تعطل كل البرامج الثقافية والوطنية والتربوية بسبب هذه البوسطات الداخلية، يتشتت الأسرى فيبعدون بين الإخوة والأقارب وأبناء البلد الواحدة والأصدقاء. تشتت التنظيمات، والمسؤولون والقيادات، وهذا يضعف الحالة الوطنية ويساهم في ضعف حالة الاستقرار.

تأتي هذه البوسطات تحت ذرائع كثيرة، فمرة يقولون نريد أن نقوم بعملية التصليح للغرف والأقسام، وتارة يقولون نريد أن نقوم بعملية رش ضد الصراصير والحشرات أو البق وغير ذلك. وتارة يقولون نريد تفتيش



الغرف والأقسام، وهنا ما يسمى في مصطلح الإدارة (أو مصطلح الأسرى) تفتيش بوسطة.

تفتيش البوسطة يعني أن تغير كل شيء وينقلب كل شيء ولا يظل أي غرض للأسير على ما هو عليه، فأغراض المطبخ والملابس وإمكاناته والمكتبة والمغسلة، كل ذلك يتم خلطه وتفتيشه، ونمكث أيامًا نعيد الترتيب من جديد.

إن البوسطة الداخلية تذكرني بحالات الاقتحام والتفتيشات التي يقوم بها جيش الاحتلال ضد منازل وبيوت الفلسطينيين، أو التفتيشات ضد الأماكن العامة والمؤسسات والمراكز ومصادرة الممتلكات، إنها السياسة التي تقوم بها دولة الكيان داخل قرانا ومدننا ونخيماتنا، كذلك تستكملها في السجون ضد الأسرى.

البوسطة الداخلية تجعل الأسير خائفًا يترقب، تشوش عليه برامج وطريقة حياته، فما أن يستقر الأسير في غرفة أو سجن حتى يتم نقله لسجن أو قسم آخر.

هذه البوسطات تتكرر شهريًا، مع الأسرى الذين يعتبرون في نظر إدارات السجون خطيرين أو لهم تأثير أو يطلق عليهم وصف متطرفين أو أصحاب مواقف شديدة ضد إدارة السجون أو من كتب على كرتة «سجاف» أي قام بمحاولة هرب، فلا يستقرون في سجن معين، تراهم يتنقلون دائمًا من سجن لآخر.



ربما ولأي سبب كان أو لأهداف لا يعلم بها الأسرى، تقوم إدارة السجون بعملية تنقلات بين الغرف والأقسام والسجون. آلاف البوسطات ويتحرك خلالها آلاف وعشرات آلاف الأسرى وهم يعانون كل ألوان وأشكال وأصناف العذاب.

تلك الدولة الحديدية التي تسهر على هذا السجن الكبير ولا تجني من وراء ذلك أي إنجاز حضاري أو إنساني، ولا تنتفع من وراء ذلك إلا حقداً أكثر وكرهاً أكبر لهذا الصنف والإجرام، ولهذه السادية الصهيونية.

إنها البوسطة المدججة بالسلاح والعنجهية والتصرفات الغريبة عن الطباع الإنسانية.

هذه البوسطات الداخلية يكتوي بنارها كل الأسرى المحكومين والموقوفين، فربما تمر أيام على الأسير وهو يعيش في دوامة التفتيشات والترقب والاقترحات.





من أجل الولادة

كما هم الأسرى كذلك الأسيرات اللواتي تم اعتقالهن على خلفية أعمال وطنية، كان من هذه الأسيرات الأم والأخت وال بنت والجدة والزوجة.

تقدمت المرأة الفلسطينية إلى ساحات الجهاد والنضال، ولم تكتفِ المرأة بالصبر والتربية والاهتمام بشؤون البيت رغم قداسة وعظمة هذه المهمة، لكنها بادرت وساهمت في العمل النضالي، والجهاد السياسي بكافة أشكاله وأنواعه. فكانت المرأة الفلسطينية شهيدة وجريحة وأسيرة.

من الأسيرات الفلسطينيات من حُكمت عدة مؤبدات أو سنوات طويلة، ومنهنّ من مكثن في السجن أكثر من عشر سنوات مثل المجاهدة عطف عليان ولينا الجربوني (عميدة الأسيرات الفلسطينيات) وغيرهن من الأسيرات.

كم هو صعب على امرأة بما تحمل من صفات اللطف والرحمة والنعومة والضعف والبساطة أن تقاد إلى السجن وتعيش سنوات حياة قاسية لا يطيقها الرجال الغلاظ.

وكم هو محزن ومؤلم أن نرى العشرات من بنات فلسطين يغبن في غياهب السجون؛ لأنهن شاركن في مقاومة الاحتلال.



ربما لا يوجد في سجون العالم أسيرات أو سجينات يلدن في السجن إلا هنا في فلسطين وإلا في سجون الاحتلال الصهيوني، عدة أسيرات كن حوامل في لحظة الاعتقال وولدن في السجن.

ولا يوجد في قاموس هذه الدولة مساحة للعفو أو التأجيل أو الكفالة أو العدل، فقد قررت الدولة أن تعتقل هذه المرأة الحامل، وكانت امرأة قادمة من غزة هاشم اسمها فاطمة الزق⁽¹⁾، في أواخر الثلاثينيات أو بداية الأربعينيات، وكانت وقتها حاملاً، قضت بالسجن ستين ونصفاً، ومن البديهي أنها ستضع حملها في السجن.

إنها البوسطة الغريبة من نوعها، بوسطة للولادة، كم هي مذهشة وعظيمة الحركة الأسيرة الفلسطينية، فالأحداث والأرقام والأعمال والتاريخ الذي صنعتته لم يتكرر في أي حركة في العالم، فتجربة تلك الحركة غنية وزاخرة في التجارب والأحداث والنماذج.

هل يوجد في العالم عشرات الأسرى، بل مئات ممن قضوا في السجن أكثر من عشرين وخمسة وعشرين وثلاثين عاماً وأكثر في السجن؟!

هل يوجد في العالم بنات وأشبال أسرى تحت الخامسة عشرة، وقضوا أشهرًا وسنين في السجن؟

هل يوجد في العالم وفي سجونها نساء حوامل تلد وتكابد لحظات

(1) فاطمة الزق: أسيرة فلسطينية من غزة، أصدرت المحكمة الصهيونية بحكمها حكماً بالسجن لمدة عشر سنوات، بتهمة الشروع في عملية استشهادية، وأفرج عنها قبل صدور الحكم عليها ضمن صفقة التبادل مع الاحتلال الصهيوني مقابل معلومات عن الجندي الصهيوني المختطف جلعاد شاليط.



الولادة والطلق كما هنا في فلسطين في سجون الاحتلال؟

هل يوجد حركة أسيرة في العالم بهذا التنظيم والإنجازات والتاريخ والكفاح والإنتاج الأدبي والثقافي كما هي الحركة الأسيرة الفلسطينية؟

هل يوجد أصلاً احتلال في العالم كما هو الاحتلال الصهيوني لفلسطين وشعبها وأرضها؟!

وهل يوجد أسوأ من هذا الاحتلال وسجونه وبوسطاته، وهل يوجد في الشارع سرقة وسطو مسلح أكبر من الذي حدث لشعب فلسطين في سنة 1948 م من التطهير العرقي والتشريد لشعب كامل؟!

كانت الأسيرة فاطمة الزق تنتظر لحظة الولادة الصعبة، فلا زوج يساندها، ولا ابن يقف معها ولا أخت ولا أم تساعد هذه الأسيرة التي تضع ابنها الأسير يوسف، أصغر أسير في العالم.

ويا ليت الأمر يقف عند قلة السند وانعدامه، إنما الصعوبة في الذين يرافقونها من أعدائهما، وليس أهلها، فكيف تشكو وتبكي وجعها وألمها، إنها الولادة العربية في سجون الاحتلال حيث تقاد الأسيرة فاطمة الزق مكبلة اليدين والرجلين وهي بحالة الطلق والمخاض وتصعد إلى البوسطة الحديدية المغلفة بالحديد، ولتقدر ولتخيل كم هي صعبة على هذه المرأة المكبلة، وتصور فظاعة السجانين الصهاينة وسخافة القانون الصهيوني الذي لا يسمح لهذه المرأة أن تحرك يدها أو رجلها، فما زالت مكبلة حتى وهي في حالة الولادة. إنه الموت المستباح، إنه الاختناق دون تنفس، إنه



الوجع اللا مسموع. لكن مجيء يوسف على هذه الدنيا أنساها تلك
الأحزان المقدسة على روحها.

لقد أرادوا وفكروا أن يكبلوا المولود خوفاً من الهرب، لكنهم لم
يستطيعوا فنوره هزم ظلامهم، وبركته وطهارته وقفت سداً منيعاً أمام
رجسهم وحقدهم الأسود.

عادت الأسيرة فاطمة الزق بمولودها يوسف إلى السجن،
والأسيرات كن قد أعددن استقبالاً يليق بهذا العريس الجديد، فقد غير
بؤس حياة الأسيرات، فكان منذ ولادته وحتى الإفراج عنه، يتنقل بين
أيدي الأسيرات.

58

ولكنه نشأ في السجن وعاش كما الأسيرات، كان يرى الشرطة
والسجانين وهم قادمون كل يوم ثلاث مرات للعد وعشرات المرات
للتفتيش والافتحام. ويوسف الصغير الذي ولد في السجن قد صعد
للبوسطة عشرات المرات، وأول سيارة ركبها في حياته هي البوسطة. إنه
شعب استثنائي، كتب عليه أن يشكل نموذجاً للعالم ولشعوب الأرض
بكل فئاته بصغاره وكباره بنسائه ورجاله وأطفاله.

لقد أفرج عن يوسف وأمه وكان يبلغ من العمر سنة وثمانية أشهر،
لم يستوعب منظر الجماهير الحاشدة، التي استقبلته وأخذ يكي ويصرخ
رافضاً أقرباءه وإخوانه وكأن بكاءه ونظراته تقول أعيدوني للبوسطة.

رويداً رويداً أدرك يوسف أنه كان يعيش في المكان الخطأ والزمن



الخطأ، هل يستطيع العالم أن يعيد له ستين سرقت من طفولته وبرائه؟! وكم يحتاج التعويض النفسي والمادي والمعنوي؟! وكم يحتاج هذا الشعب العظيم حتى بعدما يتحرر؟! كم من الوقت يحتاج كي يعوض ما خسره وما وقع عليه من ظلم وعنف وتجير وطغيان؟!

إن هذا العدو الصهيوني يحتاج لمئات السنين، بل لآلاف السنين حتى يُعوض هذا الشعب ما خسره على مستوى النفس والجسد والروح والتاريخ ولن يستطيع.

بكل صرخة وكل آه وكل نداء وكل لحظة وكل سنة وكل دمعة وكل أوجاع هذا الشعب المكلوم التي ما زال يعانيتها؛ لتحتاج لسنين حتى تصنع حالة من التوازن. ولن يكون ذلك إلا بالحرية والانعقاد من هذا الاحتلال البغيض، ولكنها الضريبة التي يدفعها شعبنا من دمه وشبابه ورجاله، وبعدها لا نتظر من أحد أن يواسينا ويعوضنا عنها؛ لأنهم لن يستطيعوا ونحن وقتها لا نحتاج.

فبوسطة التهجير التي أخرجت منها جماعات سنة 1948م، وقالوا لهم بعد أيام ستعودون، وما زالوا يضربون أصقاع الأرض والعالم مشتين ولم يعودوا، وما زالت بوسطة حق العودة تنتظر الإقلاع كي تحط رحالها في اللد والرملة وصفد، وأم الرشراش وملبس والحديثة وحيفا ويافا وعكا، وباقي مدن فلسطين التي هجروا منها أهلها قسراً وقهراً.





لمسافة قصيرة ومصيرية

كانت هذه البوسطة من مكاتب التحقيق وساحات الشبح والتعذيب في سجن رام الله المركزي إلى قاعة محكمة التمديد التي لا تبعد إلا عشرين أو ثلاثين مترًا عنه.

كان ذلك سنة 1992م عندما اعتقل أحد المناضلين والمجاهدين الأبطال، ومباشرة تم أخذه إلى التحقيق حيث الشبح والتعذيب الجسدي، وفي تلك الفترة كان التركيز على التعذيب الجسدي أكثر من النفسي، كالشبح على الكرسي والقفصة ورفع الأيدي وربطها بما سورة حيث يعلق الأسير كالذبيحة التي تنتظر الجزار كي يقوم بسلخها، والضرب المبرح وخلع شعر اللحية والسالف والشارب والصدر، يذوب هذا الجسد انصهارًا من شدة الحرارة. أيامًا وأشهرًا والأسير يتنقل بين الأساليب القمعية.

الصعقات الكهربائية، وربط الأسير من الخلف بما سورة ورفع رجليه عن الأرض قليلًا، حيث يعلق بها، فتكون أضلاعه على وشك أن تخلع من أصولها.

أسلوب الهز حيث يقوم المحقق بمسك الأسير بشدة من طوق قميصه ويبدأ بهذه العملية، وتطول هذه العملية لدقائق، وربما تصل إلى نصف ساعة وساعة وتكرر عدة مرات.



يحاول الأسير أثناء عملية الهز أن يتهاسك ويثبت، ولكنه لا يلبث أن يستسلم فيترك رأسه، ونتيجة لأسلوب الهز العنيف بين أيدي المحقق، وهنا تكون الكارثة، ومع استمرار الهز ربما يصاب الأسير بالجنون، أو تنزل نقطة دم على المخ أو تضطرب الأعصاب، فلا يخرج الأسير سالمًا، ولا يخرج إلا وأصابته عاهة أو مرض أو خلل معيّن في جسده.

وبسبب هذا الأسلوب استشهد الأسيران عبد الصمد حريزات وإبراهيم الراعي، ونتيجة الجرائم الفظيعة التي ارتكبتها جهاز الشاباك الصهيوني بحق الأسرى الفلسطينيين في أقبية التحقيق، واعتراض مؤسسات حقوق الإنسان على هذه الدولة التي تنتهك حقوق وكرامة الأسير، ولأنها أصبحت غير مجدية ولا تفي بالمطلوب ولا تحقق لهم أهدافهم؛ غيروا أساليبهم وصدر قرار يمنع فيه الضرب، وتمنع فيه أيضًا بعض أساليب التعذيب إلا للحالات الخطيرة أو للأسرى الذين يعتبرونهم قنابل موقوتة، فهؤلاء يستخدمون ضدهم التحقيق العسكري، ويكونون قد أخذوا قرارًا يقضي باستخدام هذا الأسلوب، لكن أسيرنا البطل الذي يمتلك إرادة فولاذية ووعيًا بأساليب التحقيق، وإيمانًا عميقًا لم ينالوا منه شيئًا رغم كل تلك الأساليب التي استخدموها معه.

إنه الأسير المحرر أسامة برهم من قرية رامين بمحافظة طولكرم، يبلغ من العمر الآن 48 عامًا وأكثر، كان وقتها أي في سنة 1992م أعزب وفي أواخر العشرينات أو بداية الثلاثينيات، دخل أقبية التحقيق عدة مرات، وعرفه كل محققي الشاباك، وأيضًا في انتفاضة الأقصى اقتيد إلى التحقيق بعد



اعتقاله حين كان مطارداً، وقد تعرض لعمليات الاغتيال عدة مرات.

وعندما بدأ أحد المحققين بسؤاله حول الاعتراف والتهم المنسوبة له، قال له الأسير أسامة برهم: اسأل فلاناً عني يوم كنت في تحقيق رام الله سنة 1992 م، وقل له: كيف أسامة برهم؟!

وفعلاً سأل هذا المحقق محققاً قديماً: هل تعرف أسامة برهم؟ قال له نعم، قال كيف هذا؟ قال أئيس واحد مرّ علي من الأسرى الفلسطينيين، ويقصد أنه عنيد ورأسه كالصخر.

فقال المحقق لأسامة إنه يقول عنك إنك في نظره أئيس واحد مرّ عليه، فقال له أسامة: لقد ازددت تياسة، (أي ازداد صلابة وعناداً) فلا تحاول معي ووفر على نفسك تعبك وجهدك، فلن تجد عندي حرفاً واحداً!

وفي سنة 1992 م عندما دخل برهم التحقيق ومكث ما يقارب ثلاثة شهور، ولم يعترف بكلمة، في إحدى الليالي ونتيجة نقاش بينه وبين أحد المحققين حصل تحدٍ ومشاجرة بينهما، قال له برهم: أتحدّك هذه الليلة، فمهما عملت لي لن أنطق باسمي أو بأي كلمة، فاستشاط المحقق غضباً ووضع في رأسه كيساً ذارائحة نتنة، يكاد الأسير يختنق منه، وقيد يديه وقال له: قرفص نصف قرفصة! أو يثني رجليه قليلاً ويبقى هكذا، واستمر لبضع ساعات، ثم أخذ المحقق يخلع شعر شاربه من جانب واحد، ويمسك بسالفه ويرفعه بشدة، وما أشدها من آلام، ثم خلع له



شعر صدره، وأسامة صابر لا يتفوه بكلمة، ونتيجة البرد نفخت بطنه من جهة الكلى ومع التعذيب المستمر وهو لا يرى بسبب الكيس المحكم الإغلاق على رأسه، تحركت أرجله قليلاً فأصاب بطن المحقق أو رجله، فما كان من هذا المحقق الذي كان يتفنن في التعذيب إلا أن يرفع عليه شكوى للقاضي حيث اتهمه أنه اعتدى عليه بالضرب وركله في بطنه.

وفعلاً بعد يوم أو عدة أيام أخذ برهم للمحكمة وتفاعلاً بوجود المحامي وكذلك رأى والده قد حضر المحكمة، وكانت محكمة تمديد لأسبوعين تحقيق، وبعد التمديد قال القاضي موجهاً الكلام لبرهم: لماذا ضربت المحقق برجلك؟ فقد اشتكى عليك، فما كان من برهم إلا أن قال له: يا حضرة القاضي، كيف أضربه وأنا المشبوح والمقيد، والكيس على رأسي؟!

64

وكشف أسامة عن صدره حيث رأى القاضي شعر صدره وقد خلع، وشاربه وسالفه وبطنه المنتفخة، قال برهم: لقد أكرموا في حقّي، فقد عذبوني عذاباً لا يحتمله إنسان، فرد القاضي عليه قائلاً: ممنوع على أي محقق الآن أن يتعرض لك بالضرب.

وفي تلك الأثناء كان والد أسامة برهم ينظر لابنه بحزن، شهق وأدرك أن ابنه على وشك الموت من شدة التعذيب، فقال له بالعامية: «روح يا بني وهبتك لله»، فرد عليه ابنه قائلاً بفخر: «أنا يا ابنك والله هالكلا ب ما أخذوا مني حرفاً واحداً، ولن يأخذوا بإذن الله». وفعلًا خرج من التحقيق بعد هذه الرحلة من العذاب، وبقي يزرع في الاعتقال الإداري



سبع سنوات متتالية، وكان أقدم أسير إداري أفرج عنه في سنة 1999م، تزوج وحاليًا أبو الليث، ووالده توفي وهو عائد من زيارته في سجن النقب 1995م.

لقد كانت البوسطة ذات مسافة قصيرة، لكنها حملت في طياتها آلام سنين وعبارات الفخر والاعتزاز بالوالد والولد.

أسامة برهم هذا تعرفه كل السجون، فقد تنقل بين كل السجون وخرج عشرات البوسطات، وكان يأتي لسجن وما يلبث فيه إلا شهرًا أو عدة شهور، ثم يتم نقله؛ لأنه كان دائمًا يحاربهم بالقانون ويرفع ضدهم الشكاوى على أغراضه وممتلكاته، ويطالب بحقوقه، فلا يحتملون، والحل لديهم النقل.

أسامة برهم يعرفه معظم الأسرى، فهو الأسير الوطني الضحوك كثير المزاح والنكت والأفلام، المثقف الواعي، حنون ولطيف، مليء بالمشاعر والأحاسيس، يشعر مع إخوانه الأسرى ويحاول دائمًا مساعدتهم وإفادتهم، يستغرب الإنسان كيف أن هذا الشخص اللطيف الحنون والرقيق يخفي وراء ذلك رجلًا عظيمًا صلبًا عنيدًا، إرادته فولاذية وعزيمته كالجبال الرواسي، وهمة تناطح السحاب، حفظ الله برهمًا، وجعله مرهمًا يداوي أوجاع الذين ما زالوا يعانون من البوسطة!





في ظل الإضراب عن الطعام

ربما يعتبر هذا الأسلوب الذي تستعمله إدارة السجون ضد الأسرى المضربين عن الطعام حيث يُنقل الأسير بشكل مفاجئ وسريع مع الممارسات الترهيبية التي يستخدمها أفراد الوحدات «النحشون» وغيرها، وهم ينقلون هؤلاء الأسرى من أجل الضغط على الأسير المضرب أو تخويله وترهيبه حتى يفك إضرابه، ولا يحقق الأهداف المرجوة من وراء الإضراب.

وفي اللحظة التي يعلن فيها الأسرى الإضراب عن الطعام تبدأ البوسطات والتنقلات تتحرك ليلاً ونهاراً، فتقوم بعزل قيادة الإضراب في زنازين انفرادية لا يعلمون أي شيء، ولا يوجد في هذه الزنازين ما يؤثر إيجابياً على الأسير.

فلاسير المضرب عن الطعام يتم التعامل معه على أنه متمرّد على قوانين السجن وإدارته، وتقوم الإدارة بمصادرة جميع أغراضه الشخصية، وأيضاً سحب جميع ممتلكات الغرفة، مثل البلاطة والتلفاز وجميع الممتلكات والأدوات الكهربائية، ولا يتبقى في الغرفة إلا أبراش الحديد والفرشات، وإذا كانت البوسطة تحمل بين أطباقتها الأسرى العاديين يتقلبون بين ثناياها ألماً وعذاباً، فكيف إذا كان هذا الأسير مضرباً عن الطعام؟



تستنفر إدارة السجون كل سياراتها وبوسطاتها وسجانيها وشرطتها وطواقمها الطبية والقمعية للبدء بعملية التنقلات، فلا يبقى أسير واحد في مكانه، فتقوم بنقل آلاف الأسرى من غرفة إلى غرفة ومن قسم إلى قسم ومن سجن إلى سجن آخر، ومن السجن إلى العزل، إلى الزنازين الانفرادية. وما أصعب البوسطة في ظل الإضراب عن الطعام، فمن أين لك الطاقة للتغلب على الألم والجوع وعذاب البوسطة؟ وثقل الحديد؟ ولكنها الإرادة الفولاذية، ولكنها الروح الإنسانية المتحدية، التي تكسر القيد وتتحدى السجنان.

في 17/04/2012م أعلن ما يقارب 1700 أسير فلسطيني ومن كل الفصائل الإضراب عن الطعام، وقد حضرَوا لذلك أشهرًا ووضعوا الأهداف لهذا الإضراب: إخراج المعزولين وزيارة أهل غزة وإلغاء قانون شاليط، ولأنني كنت أحد أعضاء قيادة الإضراب، قاموا بنقلي في اليوم الثالث من الإضراب من سجن نفحة إلى عزل «أيل» وهو سجن يقع في مدينة بئر السبع جنوب فلسطين، قريبًا من سجن إيشل وأوهيليكدار.

مكثت في العزل أسبوعين وأنا مضرب عن الطعام، وكان برفقتي الأسير المجاهد زيد بسيبي أحد أعضاء قيادة الإضراب، كنا نخرج للفورة⁽¹⁾ ونحن مقيدو الأيدي والأرجل ولا يوجد لدينا أي شيء، ولم نكن نعرف أي شيء عن العالم أو أخبار الإضراب، وكانت المساومات تمارس علينا كل يوم، يأتي إلينا ضباط إدارة السجن ويهددوننا بفك الإضراب

(1) الفورة: الساحة التي يخرج إليها الأسرى لقضاء وقت النزهة اليومية، والمحددة بوقت قد يختلف من سجن لآخر، وهناك معنى متداول، وهو فورة صباحية ومسائية.



وبالحكم شهراً إضافياً في العزل، أو مناقشتنا ومحاولة إحيائنا والقول لنا إنكم لن تحققوا شيئاً، ولن نستجيب لكم.

كثيرون هم الأسرى الذين تم عزلهم وهم مضربون عن الطعام، وفي اليوم الخامس عشر من الإضراب، تم نقلي مرة أخرى إلى نفحة، وفي البوسطة التقيت مع أسرى من كل السجون، أغلبهم غير مضربين، حيث لم تكن بعض السجون قد دخلت الإضراب، وتبادلت الحديث مع الأسرى الذين كان لديهم الكثير من الأخبار حول الإضراب، ثم بوسطة أخرى من نفحة إلى عسقلان للتوقيع لإنهاء الإضراب، وكان ذلك في 14/05/2012م، ثم بوسطة إلى سجن الرملة لإخبار من كانوا مضربين هناك، كي يفكوا إضرابهم، ثم عدنا إلى نفحة في اليوم التالي.

كل هذه البوسطات أثناء الإضراب، تقطع مئات الكيلومترات، وأنت مقيد الأرجل والأيدي ومضرب عن الطعام، وفي تلك العلبة الحديدية الضيقة المكان والنفس، ربما لو حدثني إنسان عن هذه الحالة، لشككت في قدرة الأسير على التحمل، لكن الحقيقة أن مئات الأسرى أثناء الإضراب عن الطعام قد تنقلوا بين عدة سجون وهم يحملون جوعهم وأوجاعهم وعذاباتهم، ينتصرون في النهاية، وقد تنقلوا عدة تنقلات، وقطعت البوسطة بهم مئات الكيلومترات، وقطعت بهم السبل، لكنهم ظلوا صابرين متماسكين بإرادة واحدة لا تنكسر.





التوقيع لإنهاء الإضراب

ذلك اليوم الذي انتظره الأسرى المضربون عن الطعام بفارغ الصبر، خاصة وقد حققوا مطالبهم التي خاضوا هذا الإضراب من أجلها أو جزءاً منها .

في الساعة الثالثة ليلاً في 14 / 05 / 2012م في اليوم الثامن والعشرين من الإضراب؛ تم نقلنا من سجن نفحة وإيشل وهداريم ورامون حيث كان يتواجد أعضاء الهيئة (قيادة الإضراب)، وتجمعنا في سجن عسقلان، اجتمعنا معاً التسعة (جمال الهور، محمود شريطح، مهدي شريم، جمعة التايه، زيد بسيبي، علاء أبو جزر، عبد الرحيم أبو هولي، عاهد أبو غلطة، وجدي جودة).

وكان حاضراً من جهة إدارة السجون والشاباك أربعة أشخاص، اثنان من الشاباك واثنان من إدارة السجون.

بعدما أدى مندوب الشاباك السلامة والتحية، قال أحدهم: لقد تم توقيع اتفاق بين مصر والسلطة والفصائل الفلسطينية من جهة، وبين «إسرائيل» من جهة أخرى، وقرأ علينا نقاط الاتفاق وكانت خمس نقاط هي:

أولاً: إنهاء الإضراب المفتوح الذي يخوضه الأسرى منذ 28 يوماً مقابل إنجازات معينة، ومطالب قد تم تحقيقها.



ثانيًا: السماح بزيارة جميع أسرى قطاع غزة والممنوعين أمنياً من الضفة الغربية درجة أولى خلال أسابيع إلى أشهر.

ثالثًا: خروج جميع المعتزولين خلال 72 ساعة وتوزيعهم على السجون.

رابعًا: بما يخص الإداري من لا يوجد عليه معلومات أكيدة لا يمدد ويفرج عنه، والذي عليه معلومات يتم عرضه على مستشار قضائي، ولا يوجد شيء اسمه ملف سري، فيحاكم أو يفرج عنه.

خامسًا: سيكون هناك جلسة بين مصلحة السجون ولجنة الإضراب بدعم مصري، وحضور ودعم من الشباك لتحسين شروط الحياة اليومية والمعيشية للأسرى الأمنيين في السجون «الإسرائيلية».

وقام مندوب الشباك الصهيوني وسلم كل واحد من التسعة ورقة عنونت بعنوان (خطاب تعهد)، مضمونها أن تتعهد قيادة الإضراب بضمان الأسرى ألا يمارسوا النشاط الإرهابي من داخل السجون.

تفاجأنا من هذا الطرح فنحن جئناكي نتفاوض مع إدارة السجون، وجهزنا أنفسنا للبدء بمرحلة جديدة، ربما تطول وتستمر لأيام، وقد اعترضنا على بعض العبارات في الخطاب، وقد بلغنا من قبل مندوب الشباك أنهم جاؤوا للتوقيع على الاتفاق وليس للتفاوض معنا.

وقبل أن نوقع وبعدما غيرنا في صيغة التعهد، قمنا بعملية مشاور مع جميع السجون ومع جميع الفصائل، حيث قام كل عضو في قيادة الإضراب



بالاتصال مع مجالس الشورى والهيئات القيادية والمركزية، ووضعناهم في الصورة، وتشاورنا فيما بيننا بعدما انتهينا من إجراء الاتصالات بالسجون، وقررنا بالأغلبية أن نوقع، فلدينا إنجاز ليس بسيطاً؛ فقد حققنا إخراج المعزولين والسماح لأهل غزة بالزيارة بعد انقطاع أكثر من ست سنوات، وكذلك مناقشة الشروط الحياتية للأسرى، وقد وقعنا بعد كل هذه المشاورات واتفقنا أن تفك كل السجون الإضراب في نفس الوقت، وكان ذلك في الساعة الثامنة مساءً في 14 مايو (أيار) 2012م.

إن الحديث عن الإضراب في اليوم الثامن والعشرين حيث القيادة مسؤولة عن حياة ومصير 1700 أسير وأكثر، والجماهير التي تنتظر ذلك اليوم، كذلك كل الأسرى المضربين وغير المضربين، إنها لحظات عصيبة وصعبة على الإنسان، ولا نأتي بجديد إذا قلنا إننا ترددنا كثيراً أنوقع أم نؤجل ونتأخر يوماً أو ساعات أو ماذا؟

اختلفنا في تلك اللحظات، فمن التسعة الإخوة وافق على التوقيع ستة أشخاص، وثلاثة عارضوا التوقيع.

إن التردد الطبيعي بين التوقيع وإنهاء الإضراب وقبول النتائج والإنجاز الذي تم تحقيقه، أو الاستمرار وعدم التوقيع على أمل أن نحقق أكثر من المطروح بين أيدينا رغم ما يحيط بذلك من خوف.

لقد كانت لحظات التوقيع أو بالأحرى يوم التوقيع من أصعب الأيام علينا، فقد كنا متخوفين ألا توفي إدارة السجون بتنفيذ الاتفاق، وأن تتصل من وعودها ونعود بخفي حنين، بلا شيء.



كذلك كنا متخوفين إن لم نوقع أن تعود بنا إدارة السجون إلى المربع الأول ويتنكروا للاتفاق والمطالب التي تم التوقيع عليها في مصر (القاهرة). كنا أيضاً متخوفين إن لم نوقع أن يحدث انهيار القاعدة، وأن يفك عدد كبير من الأسرى إضرابهم، وتحدث بلبلة واضطراب في الجيش والجهة الداخلية.

لهذه الأسباب ولغيرها أخذنا قراراً بالتوقيع.

بعد ما يقارب ثلاث سنوات من الإضراب عن الطعام وأنا أنظر للوراء مقيماً تلك اللحظات وذلك اليوم وما حدث فيه، أقول لو أننا تأخرنا قليلاً في يوم التوقيع، ليلة أو يومًا ربما حققنا إنجازاً أكبر وأكثر. لقد تنبهنا إلى أمور كنا قد غفلنا عنها في تلك اللحظات، مثل حضور محامي أو حضور الصليب الأحمر أو جهة مستقلة تهتم بشؤون الأسرى.

كثير من المحاسبات والأمور والتوقعات أخذناها بالحسبان، جعلتنا نتجه لقرار التوقيع، بالرغم من كل هذه النتائج التي توصلنا إليها، تظل تلك اللحظات لها ظروفها وتفكيرها الخاص، وحساباتها الخاصة.

ففي تلك اللحظات لم نكن نفكر ونحسب ونحلل، اليوم قد تغيرت أشياء وأمور كثيرة، على صعيد الأسرى والسجون، جعلت الأسرى يقدرون الأمور بشكل آخر يختلف عما كان قبل ثلاث سنوات.

كانت هذه البوسطة التي جمعتنا في سجن عسقلان، من خمسة



سجون: «نفحة، رامون، إيشل، هداريم والعزل»، حيث كان عاهد أبو غلمة ممثل الرفاق في الجبهة الشعبية، معزولاً منذ ستين ونصف، وكان متعباً، وذلك نتيجة الإضراب، سألناه يوماً كونه الوحيد بين أعضاء لجنة الإضراب الذي كان معزولاً كيف ترى العزل؟ فقال إن العزل يفقد الإنسان إنسانيته، فقلنا له: إن لقاءك معنا اليوم إشارة على أنك ستخرج من العزل، وقد خرجت فعلاً ونحن أول من رآك من الأسرى.

لقد أدركنا بعدها أن الإنجاز الذي حققناه ليس هو المطلوب كما كنا نتصور منذ بداية الإضراب، فقد اعتبرنا ذلك انتصاراً عظيماً وتاريخياً، هو كذلك لكننا قصرنا في المتابعة، ويبدو أن الإضراب كالثورة، فالثورة حين تقلع الرئيس أو تسقط النظام الحاكم، وتقف عند هذا الحد، ربما تأتي قوة مضاعفة تمحو الثورة الأولى، أو يتقدم أصحاب النظام السابق ليستلموا زمام الأمور، فالثورة يجب أن يكون لها أهدافها، وخاصة بعد إسقاط النظام وخلع الرئيس، يجب أن تظل مستمرة لتحقيق أهدافها، في العدالة والمساواة والحرية والنهضة الشاملة.

وكذلك الإضراب مع فارق التشبيه بينه وبين الثورة، كان يجب على الأسرى بعد الانتصار أن يتابعوا وأن يشكلوا لجنة وطنية موحدة، تمثل كل الأسرى، مركزة على إنجاز الإضراب ومتابعة لشؤون الأسرى، وخاصة المتعلقة بإدارة السجون والمتابعة وتوحيد الجهود.

لقد عاد كل إلى سجنه ونحن نحمل خوفنا وانتصارنا، ورغم توقعنا لم نكن راضين، وأقول ذلك اليوم ليس تواضعاً إنما فعلاً كنا خائفين ألا



تنفذ إدارة السجون ما وعدت به، وفعلاً ظل أحد مطالب الإضراب وهو ما يتعلق بالحياة اليومية، وتحسين الشروط المعيشية أو الحياتية، للأسرى الأمنيين؛ مغيباً مهمشاً والإدارة تماطل وتسوف وتؤجل وتكذب، وقصر الأسرى في المتابعة.

وحاولت إدارة السجون رد الصدمة التي تلقتها من خلال الإضراب بأن تستمر في عمليات التفتيش والاختحامات الليلية والقمع، فبعد الاضراب مباشرة بشهر بالضبط تم قمع سجن إيشل وسجن رامون والنقب ونفحة وباقي السجون، كي تبين للأسرى أنها لم تهزم، وكي لا تجعل الأسرى يشعرون بنشوة الانتصار في هذه المعركة.



طفل فلسطيني يلتقي مع أسير مريض

إن الحديث عن الأسرى المرضى يحتاج إلى أيام وسنين، عن أمراضهم وأوجاعهم وآلامهم وكبرياتهم، وما أصعب وأشد القوانين المفروضة على الأسرى تكبل حتى صرخاتهم، وتكبت أنفسهم وأنفاسهم.

كم من الأسرى ماتوا وقضوا نحبيهم وهم ينتظرون العلاج!

وكم من الأسرى الذين استشهدوا وهم يعضون على آهات الألم والمرضى!

وكم من الأسرى الذين تضاعفت معاناتهم! لأن ما يسمى بطبيب السجن أو الممرضة لم يتكرم عليهم بدقائق مسرعاً في علاجهم، فيشتركوا في هذه الغاية الإنسانية تسكتهم المخاوف والأوهام وظلمات المرض.

مئات المرضى استشهدوا في السجون الصهيونية، والمئات منهم اليوم مصابون بالسرطان وأمراض الكلى والحصى والقلب وأمراض أخرى متنوعة يضطر الأسير أن يتكيف معها ليأسه من العلاج حيث قلة الاهتمام، بل التعمد بعدم المتابعة.

لقد كتب الأسير الفلسطيني المحرر الأديب وليد الهودلي عدة روايات وقصص عن الأسرى، وخص في أحد رواياته الأسرى المرضى



حيث تحدث فيها عن الأسرى المصابين والمرضى الذين يمكنون في مشفى الرملة، هكذا يسمونه جدلاً، وأسماها (مدفن الأحياء).

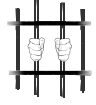
هنا الأسير المريض شاهر حلاحلة، حيث كان يعاني من آلام الحصوة، والنوبات التي كانت تصيبه دون علاج إلا إبر المسكنات والأدوية الأخرى التي تضر أجهزة الجسم.

بعد نقل الأسير عدة مرات نتيجة الآلام إلى عيادة السجن دون جدوى، وفي صباح أحد الأيام في الساعة الرابعة والنصف صباحاً، وبعد صلاة الفجر، ازداد الوجع والألم مع هذا الأسير، وإخوانه في الغرفة نيام والصبح بدأ يتنفس وصاحبنا لا يستطيع التوجع ولا التأوه من شدة الألم حرصاً منه على إخوانه ألا يستيقظوا، فأخذ يقلب على بطنه وظهره ورجليه علّ ذلك يخفف من آلامه الشديدة، حتى جاء عدد الصبح في الساعة السادسة والنصف، ومباشرة تم نقله إلى عيادة السجن، وكما هي العادة مسكنات وظل ينتظر حتى الساعة الخامسة والنصف مساءً، انتظر يوماً كاملاً حتى تم نقله إلى مستشفى سوروكا في مدينة بئر السبع، ينقل إليها الأسرى المرضى في الحالات الاضطرارية جداً والسريعة، لقد قام أفراد وحدة الشرطة بتكبييل يدي وقدمي أسيرنا، حيث لم يتمكن من وضع يده على مكان الوجع عليه يخف، لقد كان مطلبه أن يفكوا له يداً واحدة كي يهدد بها وجعه، وعلى تلك الحصوات الصغيرة التي تمزق أمعاءه وشرائينه، وظل هكذا وبرودة الجو كانت تلسع ما بقي مكشوفاً من جسمه، ووجهه ويديه وأذنيه، وظل هكذا مقيداً لشان



ساعات، وكلبشات مضاعفة تحيط بمعصميه ورجليه، وفي أثناء تواجده في مستشفى سوروكا، والشرطة تحيط به وحراس السجن حوله، رآه طفل فلسطيني وأدرك براءته أن هذا الأسير مريض ويتوجع وهو كما يبدو من شكله فدائي، فلباسه ومنظره وطريقة مشيته وهيأته تختلف عن الأسرى الجنائيين، وأدرك هذا الطفل حيث كان قادمًا مع أهله للمشفى، فهو فلسطيني من الأرض المحتلة 1948م؛ أن هذا الأسير بحاجة لشيء، بحاجة ربما لمال، أو للأكل والشرب، حاول أن يقدم له شيئًا، ولكنه لم يستطع لكونه محاطًا بالسجانين والحراس، فضل يسترق النظر للأسير، والأسير بدوره ارتاح قليلًا، وهدأت أعصابه وخفت آلامه، فقد برئت جروحه عندما رأى هذا الطفل البريء يحاول مساعدته.

حاول هذا الطفل أن يلمس الأسير وأن يسلم عليه ولم يستطع، فضل ينظر إليه ويتسم له، وعندما أراد الطفل أن يترك المشفى ويعود إلى بيته تسلل من بين السجانين والناس الموجودين في المشفى، ووصل للأسير فقال له: شد حيلك وأهلي بسلموا عليك! عاد الأسير للسجن وعاد الطفل لبيته دون أن يتعرفا على اسمي بعضهما، لكنها الأرواح قد اتحدت، فالأسير له ابن اسمه (براء) بعمر هذا الطفل، لقد تخيل أنه (براء) كان يرافقه في مشفى سوروكا، لقد ذهب إلى هناك كي يعالج جسديًا، فغادر وروحه مشحونة ببراءة الأطفال، وجاهلهم وصدقهم، وما زال يحدث عن هذا الطفل صاحب الحركات الخفيفة والكلام الرائع والسلام الصادق.



أن يرى الأسير طفلاً وهو في السجن فذلك يعتبر من أجمل الأشياء التي يمكن أن تخفف عن الأسير، فالأطفال يعيدون الأسير إلى حياته وإنسانيته وحبّه بعدما يحاول السجناء وبكل وسائله أن ينزع عنه هذه الصفات الإنسانية.



أغنية شعبية

ياللي بتسأل عن أنصار	دوّن أخبار الثوار
وللي منا يستشهد	في الصحرا بيطلع نوار
لما كنا بسجن جنيد	سمعنا تهديد ووعيد
هددوننا بسجن جديد	اسموا معتقل أنصار
أجوني من صبحية	غمغمولي عيني
وضربوني يا خي	بالعصي حتى أنهار
ركبونا في الباصات	من غير ما يحلوا العصابات
وجهلنا الشتمات	في الثاني من شهر أيار
لما أقبلنا عالنقيب	طار الجسم من التعب
والصحرا رقصت طرب	لما وصلوها الثوار
للو احد منا مشتاح	والفرشة من عميناح
شرط تنام وما ترتاح	وما فشي عندك خيار
شفنا حبة بندورة	حيننا نوخذها صورة
والشمامة صغيرة	قسمناها بالأعشار



لا تسأل عن التدخين	شو يي عمل دواوين
حجة من واحد خرمان	بتخلي الفلتر منو طار
سبحة من عجم الزيتون	وشر شوبة بلون الحنون
شافها جندي صهيون	صار يصرخ وعقله طار
منعونا من الصلاة	قلنا هذه للإله
رمونا بحر الفلاه	قلنا يي حفظنا الجبار



خاتمة

ربما من خلال حديثي في هذه السطور القليلة سلطت الضوء على زاوية صغيرة من زوايا العذاب والآلام التي يعيشها الأسرى الفلسطينيون، ولا أدعي أنني قد شملت وتحدثت عن كل آلام وأوجاع البوسطة، فهناك الكثير من القصص والحكايات تتعلق بالبوسطة وأنا لا أعرفها.

كذلك لكل أسير تجربته الخاصة مع البوسطة، وكيف أثرت فيه وفي جسده وروحه، وكيف قتلت وقته وزمانه.

إننا بحاجة إلى أن نكتب حكايتنا وقصتنا من قلب الحدث ومن داخل المحنة ومن وسط الميدان وخط المواجهة، وكأن القارئ يشاهد فلماً مرئياً ومسموعاً.

إن الكتابة من البوسطة شهادة وتقرير اجتهدت أن يكون كله ينطق بالصدق، فكل ما كتبت من قصص في هذه الرواية أو هذه الدراسة قصص حقيقية إما عشتها مع صاحبها أو حدثني بها الإخوة الأسرى أو راقبتها كحدث بارز مثل كل الأسرى الذين شاهدوها وراقبوها.

وذلك يساهم وبلا شك في عرض قضيتنا أولاً أمام شعبنا وأمام العالم كي لا يظل هذا العدو يشوه الحقائق ويزيف التاريخ والأحداث، ويدعي أنه الحريص على حقوق الإنسان (الأسير) رغم أنه هو من يقوم بقتله كل لحظة.



يكفيني من تلك الرواية أن أجعل من يقرأها يتوجع ويتأوه، فذلك بداية البحث عن الحل والتفكير بالخلاص من هذا المحتل، فالإحساس أول خطوة في معالجة المشاكل، فإذا وصلنا في وقت من الأوقات إلى عدم القدرة على التغيير فعلى الأقل أن نحافظ على حاسة الإحساس، أن نظل نمتلك الشعور والإحساس، أن نحاول أن ندق جدران البوسطة من خلال هذه الصفحات التي قرأناها، فالوجع صرخة نطلقها مدوية في وجه من احتل أرضنا وليس انطواءً وتراجعاً كما يقولون.

الحزن خلاق، أي أنه يجعل الإنسان يتحدى ويواجه كل صعوبات الحياة ولا يستسلم مهما كانت مخيفة وعظيمة، وتلك السطور تحيد لأولئك الذين ما زالوا يحاولون قتلنا في البوسطة.

فهرس

الموضوع	الصفحة
إهداء	5
بين يدي الكتاب	7
البوسطة	11
دولة الحديد والرجل الحديدي	15
بين الفرح والألم	21
حبة بوظة وكوز صبر	27
الإفراج بالخطأ	31
خاطرة	35
رحلة غربية للبحر الميت	39
المعتقل يحمر نفسه عنوة	43
معتصم رداد يصارع الموت	47
تنقلات إجبارية	51
من أجل الولادة	55
لمسافة قصيرة ومصيرية	61
في ظل الإضراب عن الطعام	67
التوقيع لإنهاء الإضراب	71
طفل فلسطيني يلتقي مع أسير مريض	77
أغنية شعبية	81
خاتمة	83



« تعريف بالكاتب الأسير المحرر

■ الاسم: جمعة عبد الله خليل التايه.

■ الشهادات التعليمية:

■ مكان الإقامة: بلدة كفر نعمة - محافظة رام الله.

■ بكالوريوس في الشريعة الإسلامية

■ تاريخ الميلاد: 1970/12/13 م.

■ جامعة القدس المفتوحة.

■ الحالة الاجتماعية: متزوج.

■ ماجستير في الديمقراطية والعلوم السياسية

■ عدد الأبناء: 2.

■ الجامعة العبرية.

■ الإعتقالات: 4.

■ له مجموعة من المؤلفات، أهمها:

■ تاريخ الاعتقال الأخير: 2001/10/24 م.

1. التربية من خلال المواجهة.

■ الحكم: 18.5 عامًا.

2. الجهاد مشروع ومنهج ورسالة.

3. خطب منبرية.

4. إن إبراهيم كان أمة

« في هذا الكتاب

البوسطة لا يعرفها إلا من تقلب على كراسيها الحديدية، وذاق برودتها وحرها، وزكم أنفه برائحها النتنة واختنق بغبارها وضيقها ورطوبتها القاسية؛ لذلك فالبوسطة قصة، حكاية، رواية، وجع، همسات، شهقات وأهات.

البوسطة هوس الأسرى، فكم من الأسرى تنازلوا عن العلاج وكم رفضوا الذهاب للفحص أو إجراء عملية جراحية أو غيرها في المستشفيات، وفقط السبب كان البوسطة، آلامها وصعوبتها.

إن البوسطة وما فيها وما حولها هي قمة الإنجازات الأمنية التي تفتقت عنها العقلية الصهيونية في الاحتياط والاحتراس والهوس الأمني الجنوني، لقد مرت البوسطة بمراحل عديدة حتى وصلت إلى هذا الشكل من التطور، أطباق من الحديد الصلب بعضها فوق بعض، وربما إذا رأت أن هناك حاجة للتطوير ومجاعة العصر تبعد ذهنيها أكثر من ذلك وأدق احتياطا واستجابة للظروف.